شیکوریک

- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆ ◆ ◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

◆ ◆ ◆

مركز الحضارة العربية

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

أحمد سلامة

شيكوريل

رواية

الكتاب: شيكوريل
رواية

المؤلف: أحمد سلامة

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٧

الجمع والصف الإلكترونى: وحدة الحاسوب بالمركز
الإشراف الفنى والجرافيك: محمد النوبى

رقم الإيداع: ٢٠١٧ / ٢٧٣٠٤

الترقيم الدولي: 978-977-496-270-7

سلامة، أحمد.
شيكوريل/ رواية: أحمد سلامة. ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١٧.
١٦٠ ص؛ ٢١ سم.
تدمك: ٧ - ٢٧٠ - ٤٩٦ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١- القصص العربية.
أ- العنوان
٨١٣

إهداء

إلى أبي: الذى علمني الحرف الأول من الحياة.

إلى أمي: السيدة الأمية التى رسمت اسمي على كفها دون أن تدري.

إلى إخوتي: مثلث الحياة الجميل.

واغرس السيف في جبهة الصحراء إلى أن يجيب العدم

إنني كنت لك

فارسًا،

وأخًا،

وأبًا،

وملك!

(الجنوبي العظيم أمل دنقل)

مُقَدِّمَة

﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾

فـي صفحـات التاريخ عجائب شـعوب.. أسـاطير وأبطـال.. خونة وقتلـة.. مـن أراد منكـم أن يتصفـح هـذا التاريـخ فعليـه أن يتحمـل عجائبه وأن يسـتوعب قدرة اللّه في خلقه.. في إنسـانه الذي نفخ فيه من روحه.. أبناء الأب آدم والأم حواء.. من عمروا الأرض ومن خربوها.. من سـكنوها سـنينا وشـهورا وأياما ودفنوا تحت التراب قرونا.. من كتبوا أسماءهم منذ آلاف السنين على مسلة المصري.. ومن ذكرت أسـماؤهم في كتب سـماوية وحرفت وتبدلت بفعل الإنسـان نفسه.. ومن حفظت أسماؤهم في كتاب محفوظ إلى يوم الدين.

عندمـا تفتـش في صفحـات التاريخ عـن أصل اليهود سـتعاني كثيرًا ولكنك ستتعجب أكثر.. تبحث في التوراة وأسفار الأنبياء مـن العهد القديم وهي كتب ورسـالات سـماوية قامـوا بتحريفها فتجـد أنهم نسـبوا أنفسـهم إلى نبي اللّه إبراهيـم ولكنك لن تجد لهـم تاريـخ قبـل خليـل اللّه الذي ولـد فـي (**أور**) الواقعة بيـن دجلة والفرات يالقرب الجزيرة العربية عام 1940ق.م تقريبًا ثم انتقل إلى (**حاران**) وموقعها حاليًا في الجنوب الشرقي من دولة تركيا ومنها بـدء دعوته إلى عبادة اللّه الواحد الأحد ثم انتقل إلى أرض كنعان (**فلسطين ولبنان والأجزاء الغربية من سوريا والأردن**). ويُذكر أن أبـا الأنبياء سـكن (**حبرون ـ مدينة الخليـل**) والتي دفن بها بعد

موتـه.. ومن أرض كنعان ذهب إلـى مصر ثم عاد ثانيًا إلى كنعان ومنها توجه إلى مكة المكرمة وأقام بها القواعد.

وتقول التوراة إن إبراهيم حصر إرثه بابنه إسـحاق دون إسـماعيل وتـزوج إسـحاق مـن رفقة ابنـة بتونيل الآرامـي وكانت عاقـرًا فدعا إسحاق ربه فاستجاب الله له ورُزق بولدين الأول عيسو والثاني يعقوب.

وتحكي التوراة عن إسـحاق وتقول إنه أحب عيسـو دون يعقوب بينما رفقة زوجته أحبت يعقوب دون عيسو وعندما شاخ إسحاق فقد نور عينيه وعندما اقترب موته دعا ولده الأكبر عيسو وقال له:

ـ (فَـالآنَ خُـذْ عُدَّتَـكَ: جُعْبَتَـكَ وَقَوْسَـكَ، وَاخْـرُجْ إِلَـى الْبَرِّيَّةِ وَتَصَيَّدْ لِي صَيْدًا، وَاصْنَعْ لِي أَطْعِمَةً كَمَا أُحِبُّ، وَأْتِنِي بِهَا لآكُلَ حَتَّى تُبَارِكَكَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ)[1].

سـمعت رفقـة زوجة إسـحاق الحـوار الـذي دار بينه وبيـن ولده الكبيـر الـذي لا تحبـه وتفضـل يعقـوب عليه فحاكـت مكيدة للعجـوز الـذي لا يـرى فبـارك يعقوب بـدلاً من عيسـو وعندما علم عيسـو بالمكيـدة حقد على يعقـوب وأراد أن يقتلـه فهرب يعقوب إلى حاران.

ومـن هنا نجد أن التوراة تصف إسـحاق بالغباء والبلاهة فهو لم يعـرف ابنه عيسـو من يعقوب وبـاع بركته بأكلـة طيبة، وتُصف رفقة زوجته أم عيسـو ويعقوب بالمكـر والخبث والدهاء، وتُظهر يعقـوب مخادعًا ومدلسًـا.. وعيسـو مخدوعًـا وحاقـدًا وناقمًا على أخيه وساعيًا للإنتقام.. وهكذا صورت التوراة أنبياء الله.

بعد ذلك ربط اليهود أنفسـهم ونسـبهم بيعقوب "إسـرائيل الله" ومن هنا جاءت لفظة "إسرائيل والإسرائيليين" وأصل تسمية يعقوب

١ـ سفر التكوين: ٢٧-٣.

بـ "إسـرائيل اللّه" كما تنص التوراة أن يعقـوب صارع اللّه فهزمه.. وقال اللّه ليعقوب ما اسمك؟

قال: يعقوب.

فقال له اللّه: (لاَ يُدْعَى اسْـمُكَ فِي مَا بَعْدُ يَعْقُوبَ بَلْ إِسْـرَائِيلَ، لأَنَّكَ جَاهَدْتَ مَعَ اللّهِ وَالنَّاسِ وَقَدَرْتَ)[1].

وتراءى له ملاك الرب في جبل جلعاد بفلسطين بعد أن ترك أرام التـي عاش وتـزوج وأنجب فيها كل أولاده الاثنى عشـر، تراءى له ملاك الرب وقال له:

ـ (قَـدْ جَعَلْتُ أَمَامَكُـمُ الأَرْضَ. ادْخُلُوا وَتَمَلَّكُـوا الأَرْضَ الَّتِي أَقْسَـمَ الـرَّبُّ لآبَائِكُمْ إِبْرَاهِيـمَ وَإِسْـحَاقَ وَيَعْقُـوبَ أَنْ يُعْطِيَهَا لَهُمْ وَلِنَسْلِهِمْ مِنْ بَعْدِهِمْ)[2].

والأسـباط الاثنى عشـر هم أحفـاد يعقوب وليسـوا أولاده الاثنا عشـر والسبط يعني القبيلة وبالتالي فالأسباط الاثنا عشر هم اثنتا عشر قبيلة من الأبناء الاثنى عشر.

وكمـا ذكرنا فإن أبنـاء يعقوب جميعهم وُلِـدوا في **حاران** في العراق وليس فيهم سـوى يوسـف فقط الذي أنعـم اللّه عليه بالنبوة فأحبه يعقوب فامتلأت نفوس أخوته بالحقد والحسـد وفعلوا به ما فعلوه بأن ألقوه في الجب.

ويزعم اليهود أنهم دخلوا مصر في عصر يوسف عليه السلام، ولم يعلم أحد بالتحديد ما هو الوقت الذي تواجد به يوسف في مصر ويقول البعـض أنـه تواجـد في عهـد الهكسـوس أي في عهد الأسـرتين الخامسـة عشـرة والسادسـة عشـرةالتي حكم فيهم الهكسوس

١ـ سفر التكوين: ٣٢-٢٨.

٢ـ سفر التثنية: ١-٨.

الذين خرجوا من بلاد الشام وبلاد ما بين النهرين إلى مصر واستوطنوا الوجه البحري.. ويعتبر هذا أول احتلال لأرض مصر في التاريخ وأقاموا عاصمتهم "هوارة" شرق الدلتا إلى أن جاء أحمس وطردهم من مصر وحطم المصريون كل أثر للهكسوس في مصر بعد خروجهم وبالتالي أصبحت هذه الفترة غامضة ولم يتبق منها إلا مزاعم يهودية تقول أنهم جاءوا إلى مصر في هذه الفترة.

وكم كان شقاء موسى وهارون عظيمًا مع هؤلاء الهاربين من بطش الفرعون عبر صحراء سيناء فبعد أن سرقوا وسلبوا المصريين في طريق الخروج بدأت متاعب كليم الله مع بشر تشغلهم المادة ولذلك سرعان ما تمردوا عليه وأظهروا ندمهم على الخروج من مصر وتمرد مجموعة منهم بسبب الطعام وحاجتهم للحم فدعا موسى ربه فأنزل عليهم المن والسلوى ولم يعجبهم الطعام الواحد فقال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾[1].

وتمردوا أيضًا عند شعورهم بالعطش فأمره الله: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[2].

وفي طريقهم مروا على بعض المصريين الذين يعملون في التعدين والمناجم وكان لهم تمثال للربة "حتحور" فطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهًا.

وأضلهم السامري عندما تركهم موسى لهارون وذهب إلى جبل الطور لملاقات ربه وانساقوا في غيهم وضلالهم وعندما حاول هارون أن يعيدهم إلى رشدهم كادوا أن يقتلوه.

١ــ سورة البقرة: ٦١.

٢ــ سورة البقرة: ٦٠.

ونجد أن التوراة قد نسبت صناعة العجل الذهبي إلى نبي الله هارون أخي موسى.. وعندما عاد موسى من جبل الطور أحرق العجل وطلب المغفرة له ولأخيه هارون فقط ولما دعاهم موسى إلى دخول أرض كنعان ليبشروا بدين الله قالوا له:

ـ ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[1].

فحكم الله عليهم بالتيه في الأرض أربعين سنة ومات معظمهم في هذا التيه ومات هارون ومن بعده بثلاث سنوات مات موسى عليه السلام.

وتذهب بنا التوراة إلى ما بعد موسى وهارون حيث تزعم أن أمر اليهود آل بعد ذلك إلى يوشع بن نون الذي استخدم الإرهاب والسلاح في غزو كنعان وتوزيعها على الأسباط الاثنى عشر واستخدم الجواسيس لتسهيل المهمة وعبروا نهر الأردن واستغلوا ضعف الأقوام العربية الكنعانية والعمورية والآرامية وفتحوا مدينة تلو الأخرى.

وتتوالى مزاعم التوراة حيث تقول أن يوشع بن نون صعد مع موسى جبل الطور وإنه كليم الله بعد موسى وعندما علم موسى أنه لن يعبر باليهود إلى أرض الميعاد عهد ذلك إلى يوشع بنون وتقول أيضًا أن الله تكلم إلى يوشع وأمره أن يعبر نهر الأردن ويوزع الأرض عليهم، الأرض التي منحها الله لهم.

ونذكر هنا أنه بعد وفاة موسى عليه السلام لم يبق أحد من أتباعه مؤمنًا برسالته وكلهم انحرفوا بعد أن أضلهم السامري وعادوا إلى جاهليتهم الأولى.

ثم جاء عهد القضاة أو عهد الأسباط حيث استوطنوا الأرض التي فتحها يوشع بنون ولم يستطيعوا أن يخرجوا الفلسطينيين من أرضهم سواء في عهد الأسباط الاثنى عشر أو في عهد سابق إلى

١ـ سورة المائدة: ٢٤.

أن نجح الفلسطينيون عام 1050 ق.م من هزيمتهم وطردهم.

وإذا تتبعت كتب العهد القديم لتتبين تاريخ هؤلاء اليهود ستتعجب لأمر من حَرّفَ هذه الكتب فبعد عهد القضاة انتقل اليهود إلى عصر الملكية الموحدة بعد هزيمتهم وانقسامهم على أنفسهم إلى شيعٍ وأسباط، فبعد فشل القضاة في حكمهم جاء الدور على طالوت ومن بعده داود وسليمان ثم مروا بعصر من التمزق والانفصال وفي، العصر الروماني وذبحوا نبي اللّه يحيى ومن قبله أبوه النبي زكريا.. عذبوه ومثلوا بجسده ونشروه بالمناشير.

ولم يكن عيسى بن مريم أفضل حظًا من موسى وهارون فقد عانى حتى يصل إلى قلوب المؤمنين وقد تعرض أتباعه إلى كل أنواع العذاب والاضطهاد على يد اليهود.

ومع نهاية العصر الروماني تمت محاصرة اليهود في مدينة أورشليم عام 132م وكانوا تحت قيادة شمعون باركوسيا وكان يدعي أنه المسيح المخلص وبعد أن حاصرهم الرومان وهزموهم قاموا بتدمير ما يقرب من ألف قرية في فلسطين وقتلوا الآلاف من اليهود، وبيع اليهودي في أسواق الرقيق لدرجة أن سعر اليهودي تساوى بسعر الحمار، وحُرم عليهم دخول أورشليم ثم عاد الرومان وطردوهم من فلسطين، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ ودخلوا في الشتات الطويل.

ووصل جزء منهم إلى مدينة الإسكندرية وأقاموا في مكان خاص بهم، وعُرف بالحي الإسرائيلي ووصل جزء آخر إلى الحجاز وآخر إلى اليمن، ومنهم من وصل العراق وأيضًا انتشروا في الشمال الأفريقي ووصلوا الحبشة وانتشروا في أوروبا عن طريق روما.

(1)

قام الجندي النيوزلندي لويس أزياك سالك في 11 ديسمبر عام 1917م برفع أول علم للكيان الإسرائيلي على أسوار القدس وكان قد حمل هذا العلم معه من الإسكندرية إلى القدس ورفرف لمدة عشرين دقيقة قبل دخول القوات البريطانية التي أنزلته وكان العلم نصفه باللون الأزرق والنصف الآخر أبيضا وبينهما نجمة داود وكان من صناعة الترزي الإسكندراني "اليعازر شوتسكين" ترزي مورينيو شيكوريل وصديقه.

في يوم من أيام عام 1870م انطلق مورينيو شيكوريل من ساحل مدينة ليفورنو الإيطالية باحثًا عن وطن، صعد على سطح السفينة المتوجهة إلى مدينة أزمير التركية، تلك المدينة الساحلية الواقعة على ساحل بحر إيجة في الغرب من تركيا وكان يقطنها آلاف اليهود حيث تمتعوا بحرية دينية واستقلال ذاتي وأقاموا المدارس اليهودية والمحاكم المستقلة وعملوا بالتجارة والتحقوا أيضًا بمؤسسات السلطة، ومع ذلك لم يجد مورينيو شيكوريل وطنه المنشود هناك فبحث عن سفينة أخرى حتى وصل مدينة الإسكندرية ومنها إلى القاهرة، عمل في البداية في محل "بيتي بازار_Au Petit Bazar " الذي كان يملكه اليهودي "هانو

Hannaux" ثم استقل عام 1909م وأسس محله الخاص في قلب القاهرة بجانب قصر الأوبرا (جراند ماجازان شيكوريل _les Grands Magasins Cicurel) والذي أصبح فيما بعد أفخم محلات القاهرة يخدم الطبقة الأرستقراطية فقط، وكان أيضًا يخدم العائلة المالكة، ونجح الرجل في فترة قصيرة في صناعة وطنه بعد ترحال طويل، وحول مورينيو شيكوريل هو وكل اليهود الأشكانز واليهود السفرديم قلب القاهرة إلى قطعة من أوروبا كما وصفتها الكاتبة الكبيرة "رضوى عاشور" في كتابها "قطعة من أوروبا" وهذه القطعة كان يطلق عليها القاهرة الخديوية وكانت تبدء هذه القاهرة من كوبري قصر النيل حتى منطقة العتبة، تلك المنطقة التي قام بتخطيطها المهندس الفرنسي "هاوسمان" بطلب من الخديوي إسماعيل، قدمه بشخصه لإمبراطور فرنسا "نابليون الثالث" عام 1869م وطلب الخديوي إسماعيل من المهندس هاوسمان أن يُحضر معه إلى القاهرة كل بستاني وفنان وعامل قد يحتاجه من أجل تحويل القاهرة إلى باريس الشرق، وبعدها بخمسة أعوام تم افتتاح كوبري قصر النيل بطول 400 متر تقريبًا وكان من أجمل الكباري في العالم في هذا الوقت وتم جلب الأربعة أسود بعد أن نحتوا خصيصًا في إيطاليا وهم من البرونز وتم افتتاح كوبري أبو العلا والذي صممه المهندس الفرنسي "جوستاف إيفل" صاحب تصميم برج إيفيل ومصمم تمثال الحرية بنيويورك (تم رفع الكوبري الآن من الخدمة لأنه لم يتحمل الزحام المروري) وتم افتتاح شارع "كلوت بك" وهو شارع أُنشئ للربط بين السكة الحديد وشارع محمد علي وقد سمي الشارع بهذا الاسم تكريمًا للطبيب الفرنسي "كلوت بك" الذي أنشأ أول كلية للطب في مصر عام 1827م، وللشارع قصة عجيبة حيث

أُطلق عليه شارع البغاء وشارع الدعارة المستوردة حيث قام نابليون بونابـرت عـام 1798م عندما وصلت الحملة الفرنسـية إلى القاهرة بترخيـص بيوت الدعارة ـ وكانت معظمها في شـارع كلوت بك وأنشـاء مستشـفى للعاهرات خوفًا على جنوده مـن الأمراض، وتم تحديـد بيوت الرزيلـة وتحديد موعد فتحها وقفلها والتشـديد على التصريحات والتراخيص والكشف الدوري على فتيات المهنة.

بعـد الحـرب العالميـة الأولى احتـاج الجنـود الإنجليـز للترفيه وأرادوا ممارسـة الجنـس في شـارع كلـوت بك مع فتيـات البيوت المرخصـة ومـن العجيـب أنـه حتـى فتيات الهـوى مـن المصريات قـد سـجلن موقفًا وطنيًـا عندما رفضـن ذلك!، مما دفـع الإنجليز لاسـتقدام عاهرات مـن الخارج وسـخر المصريون منهـم وأطلقوا على الشـارع "شارع الدعارة المستوردة" إلى أن تم منع الدعارة عام 1945م عندما أصدرت الحكومة قانون يجرمها.

هكذا أراد الخديوي إسماعيل للقاهرة أن تنافس أجمل عواصم العالم وبالفعل أصبحت، ولكن تعرضت مصر لأزمات مالية طاحنة وأوشكت مصر أن تُفلس عام 1875م، فقام الخديوي إسماعيل ببيع أسهم مصر في قناة السويس ولم يكن إسماعيل أول أوآخر حاكم يفرط في أرض مصرية بسـبب السياسـات الفاشـلة والغير مدروسة والمبنيـة علـى المجهول فقد اعتمد إسـماعيل على محصول القطن الذي كان أهم مصدر دخل للبلاد وارتفع سعر القطن بصورة كبيرة أثنـاء الحرب الأهليـة الأمريكيـة (1861_1865) وكانت الولايات المتحـدة المنافس الوحيد لمصر في سـوق القطـن العالمي وتراجع إنتاجها أثناء الحرب الأهلية إلى أن قام "أبراهام لينكولن" بالقضاء علـى الانفصاليـين وتوحيد الولايات من جديد وعـادت أمريكا إلى

إنتـاج القطـن وهذا مـا غاب عن الخديوي إسـماعيل ولـم يضعه في الحسـبان وانهـارت بورصة القطـن، ولكن الخديوي إسـماعيل بن إبراهيم باشـا بـن محمد علي الكبير تولى أمـر حكم مصر، لأنه ورثها وكان من حقه أن يبدد ورثه كما شاء.

كانـت القاهـرة قاهـرة لناسـها وأهلها فقـط وظلـت القاهرة الخديويـة للأتـراك والإنجليـز والأجانب وحُرمت علـى المصريين بـل كانـوا يعملـون بهـا حرسًـا وخدمًـا وعاهـرات فقـط وعندما أنشـأمورينيو شـيكوريل محلـه الكبيـر اسـتقدم عمـال أجانب يتحدثون الفرنسـية والإنجليزية مع بعض المصريين وعاشـت هذه القاهـرة فـي وادي ومصـر فـي وادٍ آخـر، ؛ فنجد مثـلاً أن محلات شـيكوريل استقدمت جهاز يُمكنك من رؤية قدمك داخل الحذاء قبـل شـرائه لرؤية درجـة اسـترخاء قدمـك وأصابع قدمـك داخل الحذاء في حين أن السـواد الأعظم من المصريين كان يعاني من الحفاء، وكانـت الحكومات في تلك الفترة تضع مقاومة الحفاء أحـد أهم أولوياتهـا، وهكذا كانت القاهرة غـلاف جميل ورائع لواقع قذر وسـيئ، وللأسـف خدع هذا الغلاف الكثير وصور لهم صورة تغاير حقيقة مصر والمصريين في تلك الفترة.

نعود إلى مورينيو شيكوريل الذي بنى قصره في منطقة الزمالك ليسكنه هو وأولاده (سلامون ويوسف وسلفادور) وكان لمورينيو شـيكوريل الـذي توفى عـام 1919م دور في الحركـة الصهيونية مثلـه مثـل معظـم اليهـود القادمين من خلـف البحار حيث عاشـوا يحملون الخير مـن مصر ويعملون من أجل الحركات الصهيونية، حيـث شـكلوا جبهـة مهمة غرب فلسـطين، هـذه الجبهة تخطط وتمول وتساعد على الهجرة إلى الشرق ففي عام 1896م جاء يهودي

بلغاري إلى مصر يدعى (ماركوا باروخ) وأقام في حي يسكنه اليهود الأشكانز وكان له نشاط صهيوني بارز بدأه من الجزائر واستغل فترة تواجده في مصر وأسس ثلاث جمعيات صهيونية واحدة في القاهرة، والثانية في الإسكندرية، والثالثة في بورسعيد، وكانت الجمعيات الصهيونية نشطة ولها دور تؤديه، وأول جمعية صهيونية أُسست في مصر كانت "باركوخيا" والتي أسسها ماركو باروخ، وكانت آخر جمعية تم تأسيسها على أرض مصر هي "أبناء هرتزل" عام 1913م نسبة إلى تيدور هرتزل مؤسس الحركة الصهيونية.

(2)

عندما ترى نصف رجل يلهث خلف فتاة تزن مئة رجل، لا تنصحه بالتوقف بل شجعه، فقد يعود مكتمل الرجولة وقد لا يعود وفي الحالتين النتيجة عظيمة.

ينتظرها في الثامنة صباحًا تقريبًا.. وهي كعادتها لا تتأخر.. يراقبها من بعيد.. يعرف جيدًا وقع أقدامها على الأرض.. يعرف تفاصيل عنها هي لا تعرفها عن نفسها، ومع كل هذا كان يهرب من نظراتها.. كان يشعر أنها تُعريه.. تكشف داخله المظلم.. وأي ظلام هذا الذي بداخلك يا سعيد ومن أين أتاك وأنت الطفل الذي شب في أسرة رغم بساطتها إلا أنها كانت سعيدة.. لا يتذكر جيدًا اليوم الذي تغير فيه وتبدل من سعيد الشاب الطيب الذي يحبه الجميع إلى هذا المسخ الشيطاني، الذي ينفر الجميع منه ويخشاه، تغير كل شيء وتبدل بداخله، والشيء الوحيد الذي ينير جزء من حياته هي منيرة، الفتاة التي تشعره عند القرب منها بأنه مازال انسانًا، وعندما يرتكب فعلًا مشينًا لا يفكر إلا في منيرة وكأنها إلهه الذي سيعاقبه وولي أمره الذي سيكيل له اللعنات، وكثيرًا ما كان يرسم ملامحها في خياله ويطالبها بنظرة رضا تُسكن البركان النشط الذي يشعل قلبه ويرهقه ويمنع عنه النوم، ويومًا كان يبحث عن ذكرياته السعيدة فلم يجد إلا يوم عيد الفطر من ثلاثة أعوام عندما صادفها في المنزل أتت لتهنئة

شقيقته وصديقتها فاطمة بالعيد.. يومها ابتسمت في وجهه وقالت:

كل سنة وأنت طيب يا سعيد..

ويذكر جيدًا كيف ارتبك ولم يستطيع الرد ، ولكن في ذلك اليوم نام كنوم المحارب وشعر أن له نصيب في اسمه وسريعًا ما عاوده المزاج السيئ الذي لا يفارقه.

كان سعيد بن الثامنة والعشرين أخا أصغر لخالد الذي يعمل حرفي في أمور البناء والمقاولات وأخا أكبر لفاطمة وهم أبناء لسيدة عجوز أرملة مات زوجها منذ زمن بعيد وترك لها ثلاثة أولاد وفعلت كل شيء وكل ما تستطيع حتى تحافظ عليهم وتصنع منهم أولادًا صالحين لبناء حياة سعيدة، تلك كانت رغبة فطرية للسيدة الأمية البسيطة ونجحت في ذلك مع الابن الأكبر حتى تزوج وفتح بيتًا وأنجب ولدين، وصنعت من فاطمة فتاة صالحة ولولا سمعة أخيها سعيد لطلبها للزواج أفضل شباب الحارة، حتى سعيد صنعت منه السيدة نموذجًا لشاب جيد حتى سن الثانية والعشرين عندما أختلط بشاب اسمه حسان وكان حسان أكبر من سعيد بعامين، وكان بن لرجل يمتلك خمارة وبيت مرخص لممارسة الرزيلة حيث تعمل الفتيات بالخمارة وينتهي بهم الحال في أحضان طالبي المتعة، واصطحب حسان سعيد معه ذات يوم فتغير كل شيء ودخل سعيد عالمًا مظلمًا وقذرًا كسرير في بيت رزيلة وملوثًا بدخان الحشيش، وتحت تأثير الكوكايين والخمور الرديئة تعرف على قطاع الطرق واللصوص وتجار المخدرات والسلاح، وكان لسعيد موهبة مكنته من العمل في كل المجالات ورحب به الجميع ووجدوا فيه مكسب كبيرًا حتى أصبح مع الأيام كبير بينهم يأمرهم وينهاهم ويفصل بينهم،

وكان كل ذلـك ينكسـر أمام منيـرة التي تعلم جيـدًا أنها دائمًا تحت مراقبة سعيد ، ولكنها لم تنشغل يومًا بأمره، إلى أن كانت السـماء تُسقط آخر أمطار الشتاء في شـوارع وسط البلد ، توقفت فجأة وذهبت إليه وهو الواقف بعيدًا متظاهرًا بالانشغال.

قالت له:

ـ وبعدين يا سعيد؟

رد متعجبًا:

ـ أهلاً يا منيرة.

قالت بعصبية:

ـ وبعدين يا سعيد؟

قال بارتباك:

ـ وبعدين في إيه يا منيرة؟

ـ هتفضل ماشي ورايا لحد أمتي!؟

لم يجد رد فصمت ونظر إلى الأرض.

قالت في هدوء:

ـ فاطمة أخبارها إيه يا سعيد؟

تعجب من السؤال الغير متوقع وقال:

ـ فاطمة بخير الحمد لله.

ـ ووالدتك؟

ـ بخير الحمد لله.

ـ قولي يا سعيد أنت بتمشي ورايا ديمًا ليه؟

ـ بحبك يا منيرة.

ـ طيب ليه مفكرتش مرة تتكلم معايا؟

ـ فكرت كتير بس خوفت من رد فعلك.

ـ وليه خوفت هو أنت برضه حد يقدر يخوفك؟

ـ أنا خوفت من رد فعلك مش منك بالعكس أنا بكون مرتاح وأنا قريب منك.

ـ عارف ليه يا سعيد؟

ـ ليه يا منيرة؟

ـ لأن أنت عارف رد فعلي... إبعد عن طريقي يا سعيد.. إمشي وبلاش تضيع وقتك وإعمل حساب أن أنا بنت حارتك وصاحبة أختك، ولا أنت مش بيفرق معاك أي حاجة؟

تمالك سعيد أعصابه على غير العادة وتحدث بهدوء كما تحدثت منيرة وبعد أن اشتعلت السيجارة التي بين أصابعه من حرارة جسده.. قال:

ـ ليه كل ده يا بنت حارتي وصاحبة أختي؟

ردت منيرة على سؤال سعيد بسؤال:

ـ لو تقدم للزواج من فاطمة نصاب وقاتل وسكير هتوافق يا سعيد؟

أدرك الاسقاط الواقع عليه وابتسم:

ـ لو بيحبها نص الحب اللي في قلبي ليكي مش هرفض.

كانت تعلم عن دهاء سعيد وكانت تعلم أيضًا عن صدق حبه.. صمتت قليلاً ولم يكن هذا الصمت للتفكير أو لترتيب الكلام بل كان لترتيب أشياء أخري تحركت بداخلها أمام حب سعيد وصدق كلماته وروعة نظرته التي غابت عنها من سنين.. قالت

بعد أن أعادت الأشياء كما كانت:

ـ مخادع أنت يا سعيد إزاي عايش العيشة دي وكل الحب ده في قلبك؟

ضحك بصوت مسموع وقال:

ـ غيابك هو اللي بيقتل وبينصب وبيسكر وأنا مش بلاقي نفسي إلا في الفترة اللي بمشيها وراكي واليوم اللي مش بمشي وراكي فيه بتكون في مصيبة مستعجلة لازم أقوم بيها بنفسي ومينفعش تتأجل.

تعجبت منيرة من كلماته وأطلقت رصاصتها:

ـ أنت لسه طفل يا سعيد.. لسه محبوس في الأوضه اللي كنت بتعلمنا فيها ألعاب الأطفال.. حلم أي بنت في سني راجل وأنت لسه بتلعب بس بتلعب بالناس لأن خيال الأطفال غاب عنك.. إبعد يا سعيد أنت آخر إنسان ممكن أفكر فيه.

قال بصوت حزين بعد أن ثبت نظراته في قلب عيونها:

ـ طفل يا منيرة !! فعلاً أنا طفل لو نافس رجال الدنيا في حبك لغلبهم بعد نظرة واحدة في عنيكي.

ثم رحل وترك صوت دقات قلب منيرة أعلى من ضجيج قطار الترام الذي مر أمامها وأخفى سعيد عنها وظلت منيرة واقفة صامتة دون رغبة في أي شيء.. تفكر في هذا الشاب الوسيم، وكيف استغل قوة جسده في التعدي على الناس؟ وكيف استغل جمال ابتسامته وقدرته على المكر في خداع آخرين؟ وكيف تحول من سعيد الطفل الجميل الذي كان يعلمهم ألعاب الأطفال عندما كانت تذهب لتلعب مع صديقتها فاطمة أخته والتي تصغرها بعام

إلـى هذا الحـال؟.. عادت إلى طريقها حيث كانت في طريق العودة إلـى البيـت دون أن تلتفت خلفها فهي أيضًا تعـرف وقع أقدامه على الأرض وتعلم بوجوده دون أن تراه أو تلتفت خلفها وسـارت المسـافة التي بين محل شـيكوريل الذي تعمل بـه وبين بيتها في حالة ضياع ورغبـة فـي عـدم التفكير فـي أي شـيء، ولكنها وجدت نفسـها تتذكر أول يوم صادفت سـعيد في الشـارع وكان من ثمانية أشهر تقريبًـا حيـث كان أول يـوم عمل لهـا في محل شـيكوريل بعد أن ترجـى أبوها جنايني قصر شـيكوريل زوجة سـلامون شـيكوريل أكثـر مـن مـرة لتقنع زوجهـا بتوفيـر فرصة عمـل لإبنتـه.. بالفعل نجحـت الزوجـة في إقناع زوجهـا بعدما ألحت عليـه أكثر من مره وكان دائمًا يؤجل القرار، وعندما وجد من زوجته إصرارًا قال لها:

ـ خليها تمر عليا في المحل أشوفها وبعدين أقرر.

ولـم تنسـى منيرة دخلـة أبوهـا عليها وهـو يبشـرها بالموافقة المبدئية من الخواجة سـلامون شيكوريل وباتت هذه الليلة تفكر وتسـتعد للمقابلـة وكيف تقنع الخواجة بقدرتهـا للعمل في المحل الذي لطالما أبهرها كلما مرت من أمامه.. ليلة طويلة وظنون تملأ رأسـها إلى أن نامت واسـتيقظت بعد الفجـر بقليل توضأت وصلت وأخـذت تسـتعد وارتدت أفضـل ما عندهـا وعندما دقت السـاعة الثامنة صباحًا خرجت من بيتها البسـيط الذي لا يبتعد كثيرًا عن محل شيكوريل، وحين وصلت سألت عن الخواجة سلامون فعلمت أنه لم يأت بعد.. وقفت تنتظره أمام المحل وإذا بسـعيد يقف هناك بعيد.. لم تشـغل بالها كثيرًا ولم تتوقع أنه هنا من أجلها ولو كان قريبًـا منهـا لذهبت إليه وتحدثـت معه وبعد انتظـار دام أكثر من سـاعة وصل الخواجة سـلامون ثم انتظرت ساعة أخري حتى سمح

لها عامل مسن يرتدي بدلة سوداء كلاسيكية عتيقة قميصها أبيض برباط عنق أسود على جسد طويل نحيف، وابتسامة عريضة مصطنعة.. اصطحبها إلى مكتب الخواجة ودخل معها ولم ينصرف.. أشار لها العامل المسن بالجلوس على كرسي لم تجلس على مثله من قبل يقابله مكتب كبير خلفه رجل مقبل على الخمسين أو تجاوزها بقليل يرتدى نظارة مثبته على أنف معتدل ومستقيم وأذنين منحوتتين بدقة يعلوهما شعر أسود × أبيض وأسفل الأنف بقايا شنب حُف من جانبية بموس حاد وتُرك من المنصف.. يحمل أوراق في يده اليمني يقلبها بلا اهتمام أو هكذا يبدو لها، وفي اليد الأخرى سيجارة ينبعث منها خيط دخان رفيع مرتبك يشكل في الهواء ظنون منيرة ويحمل ارتباكها، وعلى الجدار خلف المكتب هناك صورة كبيرة بالأبيض والأسود لرجل يشبه رجال العائلة المالكة بوجه ممتلئ ولحية يبدو عليها حزن رجل ضاعت سنين عمره في الترحال من بلد إلى بلد، وشارب إيطالي كثيف الشعر يتصل باللحية ويتداخل معها، وطربوش فوق الرأس وعلمت منيرة فيما بعد أن هذه الصورة للراحل مورينيو شيكوريل والد سلامون ومؤسس محلات شيكوريل.. انتبهت للخواجة سلامون عندما ترك الأوراق وحمل فنجان من على المكتب وقبل أن يرتشف منه تأمل ما بداخله ثم ارتشف منه القليل وتركه، كما كان على طبق صغير يتوسط المكتب ونظر إلى منيرة المرتبكة نظرة طويلة تمنت أن تنتهي سريعًا ثم توجه إلى العامل الواقف في ثبات يماثل ثبات الصورة المعلقة على الجدار وتحدث معه بلغة تجهلها منيرة وبعد أن انتهى توجه العامل بالسؤال لمنيرة وسألها عن سنها وأمرها بالوقوف والتقدم تجاه المكتب الذي يجلس عليه الخواجة سلامون.. تحركت ثلاث خطوات وعين الخواجة تستكشف كل

منطقة في جسدها وهي تقاوم ضعفها وتحاول أن تتغلب عليه.. فوجئ سلامون بفتاة كاملة.. جسد طويل به ليونة وتقسيم قمة الإبداع وكأنها ملكة فرعونية خرجت من تابوت سكن مقبرة منذ آلاف السنين ووجه مصري بسيط وعيون ساحرة أثرت في الخواجة وحركت أطرافه، فقرر أن تكون بنت الجناينى البسيط أفضل من يستقبل سيدات الطبقة الارستقراطية، ودخل الخواجة مع العامل في حوار لم يدم كثيرًا وانتهى بأن نظر الخواجة إلى منيرة وابتسم وتحدث إليها المسن مبتسمًا، ولكن هذه المرة ابتسامة حقيقية:

ـ اتفضلي يا آنسة عشان تستلمي شغلك.

انصرفت منيرة خلفه مسرعة وهي تحمد الله بعد أن خلصها من هذا الموقف الصعب وتحمده أيضًا لنجاح المقابلة.. وأثناء سيرها مع العجوز أخبرها عن اسمه "موستاكي" ومن ثم أخبرها أنه يعيش في مصر منذ فترة طويلة، وأنه كان يعمل مع الخواجة مورينيو شيكوريل منذ أنشاء هذا المحل، وعرفت منه أن السبب الذي جعل الخواجة يوافق على عملها في المحل هو قوامها وجمالها وأنها في فترة قصيرة قد تكون واجهة جميلة للمحل واستقبلت منيرة كلمات المسن دون أي انطباع فهي اعتادت كلمات المدح وتسمعها دائمًا وتراها في عيون الناس.

وصل بها العامل إلى أن سلمها لسيدة في الأربعين من عمرها ذات وجه بشوش.. استقبلتها بحفاوة بعد أن سألتها عن اسمها.. وقالت لمنيرة:

ـ أنا مدام ميرال مصرية من أصول تركية وأنا من سيؤهلك للعمل في أفخم محلات القاهرة.. كل عملائه من طبقات

راقيــة وأنــت جميلة ولديك كل ما تحتاجــه فتاه للعمل هنا يا منيرة.

وتذكــرت منيرة أن مدام ميرال منحتهــا ملابس عادت بها إلى البيــت لترتديهــا أثناء عملها بعــد أن أذنت لها بالانصــراف والعودة غــدًا وكانــت قد تركــت انطباعا جيــد بداخلها ، وأخــذت منيرة تعــد الكلمات التي نطقت بها على أصابع يديها.. عشــرة كلمات وتركت الباقي لنظرة عيونها وروعة جسدها وحضورها الطاغي.

واســتفاقت منيــرة مــن ذكرياتهــا حيــن وصلــت إلــى حارتهــا الكئيبة..

(3)

هو: لن نموت قبل أن نحرر الأرض.

هي: لن يحرر الأرض إلا موتنا.

ابتسما معًا وواجها قذائف العدو بصدر يملؤه الحب فقتلا العدو بموتهما وعاشت الأرض.

شكل اليهود السفارديم المطرودين من إسبانيا والبرتغال مع اليهود الأشكانز الهاربين إلى مصر من أنحاء أوروبا الشرقية مجتمع يهودي متكامل وانضم إليهم يهود مصر (الربانيون والقراءون) وهم الذين يتحدثون العربية والفرق بينهم عقائدي يتمثل في المناسبات والأعياد والأحكام الدينية اليومية والتقويم والربانيون هم الطائفة الأكبر في العالم ويطلق عليهم أيضًا (التلموديون) وكان الربانيين والقرائين عددهم بمصر قليل مقارنة بالسفرديم الذي بلغ عددهم قبل حرب 48 ما يقرب من 75 ألف نسمة والأشكانز 40 ألف نسمة أما يهود مصر فكانوا 11 ألف نسمة فقط، ووجدوا في مصر موقعًا ممتازًا وأفضل نقطة انطلاق إلى فلسطين لتأسيس دولتهم، وقد وجدوا أيضًا شعبًا محتل وأرضًا مستباحة وفرصة عظيمة لتكوين الثروات بمساعدة القصر والإنجليز مع إجادتهم للتجارة وحبهم للمال، هذه الأموال التي جمعوها ساهمت بشكل كبير في توفير السلاح وتأسيس الجمعيات اليهودية لدرجة إصدار صحف يهودية عديدة باللغة

العبرية لتمجد في التاريخ اليهودي المزعوم وتبشر بحلم الدولة، وللحقيقة كان هناك منهم من يقف ضد الحركات الصهيونية وضد إقامة دولة على جثث أهل فلسطين، ولكنهم كانوا يتحولوا مع الأيام رغمًا عنهم خاصة مع حرب 48 ومع وصول أبناء المصريين المطحونين إلى السلطة مع ثورة يوليو ورحيل الملك والإنجليز.

أكثر من 20 عامل وعاملة في قصر شيكوريل المهيب، كلٌ منهم يعرف عمله ويتفانى فيه، نصفهم مصريون ونصفهم أجانب، وكان الخواجة سلامون يختار السائق الأجنبي والجناينى المصري، وكانت زوجته تفضل المصري والمصرية على الدوام في أمور المطبخ والنظافة، وترى فيهم مثال للطاعة والأمانة، ويومًا طالبت زوجها أن يستبدل السائق "انستي خريستو" اليوناني بسائق مصري فهي لا تحبه ولا تثق فيه، فدائمًا ما كان يشكل مصدر قلق لها وكان رد فعله كالعادة تأجيل القرار.. كان يشعر أن السائق وكل العمال الأوروبيين واليهودي منهم على الأخص مسئوليته ومسئولية كل التجار اليهود، وكان يسأل نفسه إذا لم نوفر لهم العمل والمسكن فمن سيفعل ذلك؟.

في عصر يوم من الأيام وقف الخواجة سلامون في جنينة القصر يتأمل روعة الزهور والأشجار ويراقب سالم الجناينى والد منيرة وهو يعمل في تنظيف وتنسيق الزرع، فذهب إليه وهو منشغل بعيون ابنته وروعة جسدها، وفي هذا اليوم قد اتخذ قرار جلب "المنيكان" الجسم البلاستيك الذي استخدم لأول مرة عام 1860 في المحلات التجارية الكبرى، وكان في البداية بدون وجه إلى أن طوره البلجيكي "ستوكعن" وأضاف إليه وجه وشعر عام 1869.

على يقين لو أنه تمكن من عرض بضائعه على جسد منيرة

لجـاءت الزبائن من شـتى أنحاء الدنيـا.. ابتسـم للجنايني فانتفض الرجل واقفًا فحياه الخواجة بإيماءة من رأسه ونظر في عينيه فوجد مالم يكن يراه من قبل.. لقد وجد في عين الجنايني البسيط شيء مخيـف أفقده القدرة على إطالة النظر وانصرف مسـرعًا وعاد عم سالم إلى عمله.

توجـه الخواجة إلـى عوضين الحـارس وفي طريقـه على الممر الذي يتوسـط الأشـجار والورود انتابه الخوف وشـعر بضآلته أمام جنايني بسيط وسأل نفسه:

ماذا لو رأيت في عيون عوضين ما رأيته في عيون سالم؟ وقبل أن يفكر في الاحتمالات كان قد توقف أمام سالم الصعيدي بن قرية "بني مر" الذي كان يضايف بن بلده ومعه ابنه طالب الإعدادية الذي سيتركه مع عمه في القاهرة ويعود إلى الإسكندرية حيث يعمل.. توقف عوضين أمام الخواجة وتبعه ضيفه ولم يتحرك ابنه ولم يهتم.. حياهم الخواجة أيضًا بإيماءة سريعة ونظر في عيون عوضين فوجد نفس نظرة سـالم، والتفت ونظر في عيـن الضيف فأدرك الخطر، وعندما نظر في عيون الطفل تأكد أن وجود اليهود في مصر حتمًا سينتهي قريبًا.

فـي روايـة "الاعترافـات والمذكـرات الشـخصية لخاطـئ لـه مبـرره" قـدم الإسـكتلندي جيمس هـوج وصف بديـع للمحاكاة كان مؤداها:

".. عندما أتأمل بشـكل جدي ملامح شـخص مـا فإنني أتخلى عن شـخصيتي وأتخـذ نفس مظهره وهيئته، وقـد أذهب لأبعد من ذلك، فعندما يكون التأمل أكثر امعانًا ودقة فإنني لا أصل للهيئة نفسـها والمظهـر فحسـب بل أتعدى ذلـك لأصل إلى المزاج نفسـه

والأفكار الخاصة بالشخص الذي أتأمله، فبتأملي لشخص ما أصل إلى مظهره الخارجي عن طريق محاكاته ومن خلال المظهر أصل إلى أكثر أفكاره خصوصية".

أسرع الخواجة سلامون إلى باب القصر الكبير والذي رأه كثقب إبرة بعد أن ضاقت الدنيا في وجهه ودخل إلى مكتبه وأجرى أكثر من تليفون وما من رقم إلا وأخطأ في طلبه وما من مكالمة أجراها إلا وكانت مليئة بالعصبية والتوتر.

في المساء امتلأ قصر شيكوريل باليهود من تجار ورجال من جميع الجنسيات يشكلون الجزء المهم في طبقة الارستقراطية المصرية.. واجتمعوا بعيدًا عن الخدم في قاعة كبيرة في الدور الأرضي من القصر هذه القاعة لها باب واحد محكم القفل لا يُخرج أي صوت من الداخل إلى الخارج والعكس.. وحول طاولة اجتماعات عملاقة جلس الجميع على كراسي مصنوعة من الخشب السويدي الفاخر ومبطنة بجلود حيوانات مسكينة وقعت فريسة في أيدي صيادين مهرة وهناك على الحائط المقابل للباب صورة عملاقة لباني القصر ومؤسس محلات شيكوريل العملاقة "مورينيو شيكوريل" وعلى رأس الطاولة من الداخل وقف سالمون شيكوريل ينتظر صمت الجميع حتى يبدأ حديثه وما هي الإ ثوان حتى صمت الجميع بعد أن أحدثت كاسات الويسكي نغمة رنانة عند ارتطامها بالخشب النظيف.. كان وجه سلامون يبعث على القلق وهذا ما سبب كثيرًا من الحيرة والترقب لدى الجميع انتظارًا لمعرفة سبب استدعاء سلامون لهم الذي بدء منطلقًا من طقوس يهودية بترديد بعض الجمل المختارة من التوراة وأخرى من البروتكولات، ثم تطرق إلى متن كلمته وعندها تغير لون وجهه ونبرة صوته:

ـ مـن كان منكم لا يـرى ما رأيته اليوم في عيـون المصريين فليعيـد النظر.. هؤلاء الناس البسـطاء الذيـن جئنا إلى بلدهم واسـتعبدناهم وتملكناهـم وعملـوا لدينـا خـدم وحرس في عيونهـم نذيـر خراب قـادم لنا لامحالة إن لم نجـد حلا... لابد مـن الاندمـاج أكثـر وأكثـر مـع هـؤلاء المسـاكين حتـى يشـعروا أننا مصريون مثلهم.. إنهم ينظرون إلينا نفس نظرتهم للإنجليز والأتراك وسـيأتي يوم قد يكون قريب سـيعود فيه المحتـل الإنجليـزي إلى وطنه ويعـود الأتراك إلـى بلدهم أما نحـن فليـس لدينا وطن نعود إليه.. لن نجـد وطن بديل يمنحنا كل هـذا الثراء والأمان.. لقد جمعتكم الليلة لأحذركم من الغد القريب، والتفكير معًا لضمان حياة أبنائنا وأحفادنا.

انتهى سـلامون من طرح كل ما لديه وعندها شـعر بقسط من الراحـة وجلـس على رأس الحضور تـاركًا لهم الفرصـة للرد على كل مـا طرحـه، وكان مـن الطبيعـي أن تكون الكلمـة الأولى ليوسـف قطـاوي رئيس الطائفـة اليهوديـة وحفيد يعقـوب قطاوي الذي كان أول يهودي مصري يُمنح لقب "بك" وترجع أصول أسـرة قطاوي إلى إليشع قطاوي القادم إلى مصر من النمسا وبرز العديد من أبناء هذه العائلة في النشاط السياسي والاقتصادي ومُنحت لهم امتيازات عديدة من القصر ومن الإنجليز.

وقف الرجل وعندها صمت الحضور وحيا سـلامون شيكوريل وأثنى على ما قال وتطرق إلى إضافته قائلاً:

ـ ظهر القلق والخـوف على مصيرنا عندما اختلطنا بالجمعيات المختلفـة فـي كل أنحـاء العالـم فتشـتتنا، فبيننـا الآن من يجـد الوطن هو مصر ويُخلـص لها، وبيننا من يراها ممر أمن

للإنتقال شـرقًا إلى أرض فلسـطين، وهذا التشتت قد يعيدنا إلـى زمن الشـتات في العصـور القديمة، ونحن الأن شـكلنا مجتمـع يهـودي في مصر ولـو أخلصنا لهذا الوطـن واندمجنا بين طبقاته المختلفة دون الوقوف عند الطبقة الارسـتقراطية لأصبـح وطننا حقّـا وأحبنـا المصريون وتغيـرت نظرتهم لنا.. أما إذا اسـتمر تشـتتنا فعندها قد نُجبر على الرحيل من هذا الوطـن.. أنا أُثمن مشـاعر سـلامون بـك وأُثني على مشـاعره المخلصة وأتمنى أن تكونوا أيضًا على علم بأهمية ما قال.

جلس الرجل ودارت نقاشـات عديدة بيـن الحاضرين ومنهم من سخر من كلام سلامون شيكوريل، ويوسف قطاوي وشككوا في قدرة المصرين على طرد الإنجليز والملك، وكثيرًا منهم أصر علـى ضرورة الربط مع الحركات الصهيونية والسـعي لحلم إقامة الدولـة على أرض فلسـطين واسـتمرت النقاشـات حتى السـاعات الأولى من اليوم التالي.

ودع سـلامون ضيوفه وصعد إلى غرفة نومـة منهكًا وتدور في رأسـه الكثير من الظنـون وتذكر أنه لم ينشـغل يومًا بكل هذه الأفـكار إلا بعـد اليـوم الذي رأي فيـه منيرة بنت سـالم الجنايني وكثيـرًا ما قـرر نقلها إلى فرع آخر أو فصلها كليا حتى يسـتريح من العناد السـاكن في عينها ولكن حضورها كان يملئ المحل بالبهجة فاليوم وبعد شهور من بداية عملها أصبحت جزءًا مهمًا من محل شـيكوريل لدرجة طلبها بالاسـم من بعض زبائن المحل ومع ذلك نام سـلامون شيكوريل في الساعات الأولى من صباح الرابع مـن مارس عـام 1927م بعد أن اتخذ قرار نهائي لا رجعة فيه بفصل بنت الجنايني من العمل حتى يستريح من ظنونه وشكوكه.

(4)

شيطان قتل شيطان.. وقف الإنسان بعيد
إنسان جرح إنسان.. وقف الشيطان "سعيد"

عـاد سـعيد وكلمات منيـرة تقوده حتـى وجد نفسـه في غرفة فاطمـة.. الغرفـة التي كانوا يلعبـون فيها وهم أطفـال.. لم يغضب مـن وصفها له بالطفل بـل وجد في وصفها تفسـير منطقي لما هو عليه.. كانت غرفة فاطمة جميلة وبسيطة مثلها.. ألقى بجسده على السرير النظيف والمرتب وما هي إلا ثوان حتى غاب في نوم عميق.. كانت فاطمة في المطبخ ووالدتها في غرفتها ولم يشعروا بدخول سـعيد.. وبعد فترة أنهت فاطمة عملها وعادت إلى غرفتها فوجدت سعيد غارق في النوم.. وقفت أمام السرير صامتة ثم تحركت نحوه وفردت ذراعه بهدوء ووضعت رأسها عليه ونامت بجانبه.

نـادت الأم على فاطمـة فلم تجد رد فخرجت تبحث عنها.. ذهبت أولاً إلـى المطبـخ فلـم تجدها فتوجهـت إلى غرفتهـا.. فتحت الباب فوجدت فاطمة نائمة في حضن أخيها.. فقدت الأم توازنها من روعة المشـهد فاتكأت بيمنها على الباب ومسـحت بيسرها دمعة وقفت على خدها وكأنها ترفض السـقوط وخرجت وأغلقت الباب بهدوء وذهبت إلى المطبخ لتعد الطعام الذي يحبه سـعيد وهي تتعجب من بنتها التي ترى أخاها أجمل إنسان في الدنيا لدرجة أنها لا تصدق ما يقـال عنه وتدافع عنه أمام الجميع وتغضب من أي شـخص يذكره

بسوء حتى ولو كانت أمه وتذكرت الأم يوم أن كانت غاضبة من سعيد وجلست تدعوا عليه وتشكوه إلى الله.. يومها صرخت فاطمة في وجهها وانهارت من البكاء ودخلت غرفتها وأغلقت بابها وظلت طوال اليوم دون أكل ولم تخرج من غرفتها إلا بعد أن سمعت سعيد يناديها من الخارج خرجت وهي تبكي واحتضنته بشده.. ومن يومها لا تستطيع الأم أن تذكر سعيد بسوء أمامها.

استيقظ سعيد فوجد فاطمة بجانبه فتأمل وجهها الملائكي وقبل رأسها وقام بهدوء وخرج لصالة البيت الصغير فسمع صوت قادم من المطبخ فذهب على أطراف أصابعه ووقف على باب المطبخ خلف أمه وحرك أطراف أنامله على كتفها فانتفض جسدها واستدارت فوجدت سعيد يضحك بشدة فضحكت وهي تلومه على عادته التي تلازمه منذ طفولته وقالت له:

ـ هتكبر امتي بقي يا واد؟

ـ واضح إن أنا لسه طفل فعلاً.

ردت الأم:

ـ وهتفضل طول عمرك طفل.

ابتسم وذهب إلى غرفته وكانت أمه قد أعدت له ملابس نظيفة أخذها وذهب إلى الحمام واغتسل وغير ملابسه، وعندما خرج كانت فاطمة قد أعدت الطعام بعد أن أيقظتها أمها.. جلس بينهم يأكل وهو صامت حتى سألته فاطمة عن السبب الذي أدخله غرفتها ولم يدخل غرفته فقال لها:

كنت تعبان وبلاقي الراحة في غرفتك.

.. نظرت فاطمة إلى أمها في سعادة فابتسمت لها.

خرج سعيد من البيت بعد أن نامت أسرته الصغيرة وتوجه إلى الخمارة التي يقضي بها معظم وقته وعندما وصل وجد الجميع في انتظاره.. جلس بينهما شارد الذهن يفكر في منيرة رغمًا عنه فهو يفعل أي شيء يشغله عنها ، وقد يجد هذا الشيء لدقائق ويعود وينشغل بها من جديد.. لاحظ الجميع شروده وغيابه بينهم فتركوه لحاله حتى يعود ، وجاءت ليلى وهي إحدى فتيات الخمارة وجلست بجانبه وكانت أجمل فتاة في المكان وهي فتاة سعيد المفضلة يرتاح لها ويحكي لها كل ما يشغله أما هي فكانت تحبه حبًا حقيقيًا وكانت تعرف عن عشقه لمنيرة ، وعندما نظرت في عينيه علمت بما يشغله وأمسكت معصمه بقوة حتى ينتبه لها وسألته :

ـ مالك يا سيد الرجالة؟

ـ انتظرت رد سعيد فلم ينبس ولم يلتفت لها :

ـ مفيش غيرها منيرة يا سعيد اللي بتعمل فيك كده.

نظر إليها عندما سمع اسم منيرة ودار بوجه عنها من جديد.

تركت ليلى مقعدها وجلست على المقعد الذي يقابل سعيد وهي تغني بصوت خليع أُغنية لسلطانة الطرب منيرة المهدية تقول كلمتها...

"أسمر ملك روحي يا حبيبي تعالى بالعجل
مسافر على فين وأخد مهجتي وياك
لو كنت تعلم بحالي لأخدتني وياك
شعبان ورمضان وشهر العيد لم شفناك
والله إن سلتك عيوني أنا قلبي لم يسلاك
أحب مشي العصاري لأجل ما شوفك
يا اللي مداري حمار خدك بطربوشك

أن جدت بالوصل من ذوقك ومعروفك".

وعندما جلست ونظرت في عيونه صمتت وقد شعرت بالخجل أمام حب سعيد.. انتقلت مرة أخري لتجلس على المقعد الملتصق به وهمست في أذنه:

ـ احكيلي يا سعيد.

قال وهو ينظر إلى الفراغ:

ـ أعمل إيه يا ليلى مع بنت عنيدة بتشوفني طفل وأنا اللي مفيش راجل يقدر يوقف في وشي.

قالت ليلى:

ـ طبعًا راجل وسيد الرجالة بس سعيد اللي بيهد أكبر شنب غير سعيد اللي بيوقف قدام منيرة.. أنت بتعشقها يا سعيد والعشق ليه أحكامه.. شوف حل يقربها منك يا سعيد وبلاش تعاند أنت كمان.

رد بعصبية:

ـ أعمل إيه يعني!؟ بقولك بتشوفني طفل.

ابتسمت:

ـ فعلاً إنت حبتها حب طفولي، اتعلقت بيها وخلاص وعايزها ليك من غير ما تعرف هي عايزة إيه زي الطفل اللي بيتعلق بلعبة وبيتشعبط فيها من غير ما يعرف سعرها.. ضحي عشان حبك يا سعيد قبل ما يضيع منك.

قاطعها بحدة:

ـ أضحى بإيه؟

قالت في خوف:

ـ ضحي بطيشك وخليك الراجل اللي هي بتتمناه.

نظـر إليهـا نظرة كلها شـر فقامت مسـرعة فهي تعلـم ما بعد هـذه النظرة، وبعد دقائق عادت وكان سـعيد كما هو غائب عن الصخـب الـذي يحاوطه فرسـمت بكفهـا طريق على ظهـره فعاد بعض الشيء من شروده وابتسمت في وجهه وهي تقول:

ـ أجمل ما فيك قلبك وأكتر حد بيقدر يقدر الحب واحدة بايعه جسـمها لشـوية حيوانات بيقضـوا شـهوتهم ويبصولها بقرف ويمشـوا، بس أنت وعشـان بتحب برتاح معاك، لأنك بتكون في حضني وعقلك معاها ما تيجي يا سعيد حضنك واحشني.

وجذبته من ذراعه لعله يقوم معها وإذا بحسان يمسكها بقوة من معصمها حتى توجعت واستغاثت بسعيد الذي خلصها من حسان.

فقال لها حسان:

ـ امشي يا بنت الكلب شوفي شغلك.

فانصرفت مسرعة وهي تنطق بكلمات غير مسموعة.

.. نظر حسان لسعيد فضحك بصوت مسموع وخبط بكفه على كتف سعيد وهو يقول:

ـ بقـي إنـت مـش لاقي حل مـع بنـت لا راحت ولا جـات بص يا صاحبـي البنـت دي طول ماهي شـغالة في المحـل الفخم ده وبتلبس وتقابل الباشوات مش هتيجي معاك سكة.

إعتدل سعيد واهتم بكلمات حسان الذي واصل:

ـ بنت الجناينى نسـيت نفسها يا صاحبي ولازم تقعد في البيت وإنت عندك أكيد بدل الحل ألف عشان تقعدها في بيتها.

ثم انصرف وترك سعيد وحيدًا يفكر كيف يمنعها عن العمل بعد

أن اقتنع بكلام حسان دون تفكير إلى أن جاءته الفكرة الشيطانية وهم منصرفًا ، ونظرات ليلي تلاحقه في قلق ولم تكن تعلم أن هذه أخر مره تطأ أقدام سعيد الخمارة ، وأنها لن تراه مرة أخري.

نظر سعيد في ساعة يده فوجدها تخطت الثانية من صباح الرابع من مارس عام 1927م فتوجه بخطوات عصبية نحو الزمالك قاصدًا قصر شيكوريل.

(5)

يموت شبح مع كل مولود ومع كل ميت يحيا آخر.

استيقظت القاهرة صباح الرابع من مارس عام 1927م على فاجعة مقتل التاجر المشهور سلامون شيكوريل في غرفة نومه.. أخبار عديدة خرجت من مسرح الجريمة.. وجميعها متباينة ولكنها مثيرة وانتشر الخبر كسرعة ورقة تجرفها عواصف الشتاء.. وأبرز ما قيل أن عصابة مسلحة اقتحمت القصر الكبير وقتلت سلامون واستولوا على أمواله، وقيل أيضًا أن قاتل إيطالي جاء من إيطاليا خصيصًا ليقتل سلامون، وروج البعض إلى أن سلامون قُتل على يد زوجته، وقال آخرون منتحرًا وحاول كثيرًا أن يتخلص من حياته قبل ذلك ولم ينجح، والحقيقة كاملة لا تعلمها إلا زوجته التي نجت من الموت ولكنها إلى الآن وبعد ساعات من الحادث فاقدة القدرة على النطق.. لكن صمتها هذا لن يدوم كثيرًا أمام رجال النيابة المتطلعين إلى سماع أقوالها بعد أن قامت الشرطة بالقبض على مشتبه فيه بالقرب من مسرح الجريمة وهو شاب اسمه سعيد في الثامنة والعشرون من عمره.

كانت الدماء في كل مكان وهناك استنتاج يرجح أن الجاني ترك الرجل بين الحياة والموت فتحرك الرجل مستندًا على حيطان القصر والدماء تسيل منه حتى لونها بالأحمر ويبدوا أن الرجل كان غير مصدق أنه سيموت، وكيف يموت وقد أعد خطة كاملة لتطوير أعماله، وكيف يموت وهو لم يهنأ ببناته ولم ينعم

بربح تجارته.. ولكنه مات وترك كل شيء ليدفن بمقابر البساتين حيث دفن والده وكل اليهود الذين أنهوا حياتهم في مصر..

تلك المقابر التي مازال اليهود يعتبروها جزء من أملاكهم ويقولون أنها ثاني أكبر مقابر لليهود في العالم بعد المقبرة التي تقع في قلب العاصمة التشيكية "براغ"، والتي خصصت لدفن موتى اليهود في القرن الخامس عشر حتى القرن الثامن عشر، وقد أُغلقت بعدما ضمت رفات أكثر من 12 ألف يهودي.. أما عن مقابر البساتين فيقول البعض أنها كانت بتبرع من أحمد بن طولون في القرن التاسع الميلادي للجالية اليهودية، وكانت مساحتها 100 فدان ويسميها اليهود "تراب اليهود" وتقع شرق حي البساتين وتضم عائلات كاملة من اليهود ومشاهير عديدة ممن عاشوا في مصر.

يمر من أمام مدام سلامون شيكوريل أو بالأدق أرملته سحابات سوداء كلما حاولت طرد هذا السواد الذي يحاصرها تفشل.. تراه في عيون بناتها.. تراه على ملابسهم السوداء.. تراه حتى في ذكرياتها الجميلة مع سلامون.. تراه في مشهد موته الذي لن تنساه.. تراه في دمائه التي جفت على كفها.

انتصف النهار ولم تتحدث السيدة، وكلما حاولت الصمود لتدلي للمحقق بشهادتها انهارت من جديد إلى أن جاء صوت من بعيد.. صوت أذان العصر بصوت جميل خارج من مسجد مجاور للمستشفى التي ترقد بها السيدة، وعندها تقريبًا استطاعت أن تنطق.. كان المحقق في الانتظار بالخارج فدخل الغرفة مسرعًا ومن قبله الطبيب الذي تحدث إليه المحقق:

ـ هل تستطيع أن تروي شهادتها الآن يا دكتور؟

ثم أخرج أوراقه ليدون ما ستقوله السيدة ونشط ذاكرته التي

تحمل الأسئلة بعد أن أشار إليه الطبيب وقد اطمأن عليها.

المحقق:

ـ هل شاهدتي ما حدث في غرفة نومك ليلة أمس؟

ـ نعم وأتذكر كل شيء.

المحقق:

ـ اذًا ماذا حدث؟

قالت السيدة بصوت يملؤه الحزن والبكاء والنحيب:

ـ جاء سلامون إلى غرفتنا بعد أن ودع ضيوفه...

(قاطعها المحقق):

ـ من كانوا ضيوفه؟

ـ عندما جاء سلامون تنبهت لقدومه وكنت أود أن أسأله عنهم ولكن كان النوم أقوى مني ولم استيقظ إلا على اقتحام الغرفة.

المحقق: أكملي...

ـ استيقظت في فزع على صوت أقدام وعندما فتحت عيني وجدت أربعة أشخاص لم أتعرف على أحد منهم في البداية قاموا بتخديري وغبت عن الوعي مدة لا أعلم كم كانت إلى أن عاد إلي الوعي من جديد ، وقد أشعلوا النور وكنت موثوقة اليدين والقدمين وكذلك سلامون وعندما حاول سلامون المقاومة قام خريستوا بطعنه عدة طعنات في أماكن مختلفة من جسده...

(لم تصمت السيدة إلا بعد أن قاطعها المحقق)

ـ من خريستو؟

ـ انستي خريستوا يوناني الجنسية وكان سائق سلامون قبل أن يطرده، فقد عمل لدى سلامون شهرين تقريبًا، وقام بسرقة بعض الأشياء الثمينة، وأنا من حذرت سلامون منه أكثر من مرة، وفي النهاية قام بطرده.

المحقق:

ـ من الثلاثة الذين كانوا مع خريستوا؟

ـ كان معه جونا داريو السائق الذي حل محل خريستوا.

المحقق:

ـ ومن الاثنان الآخران؟

ـ لا أعرفهم وأحاول أن أتذكر ملامحهم.

المحقق:

ـ لا ترهقي نفسك الأن فالكل يعرف طبيعة ما تمري به.

ثم انصرف في خطوات واسعة وكأنه حصل على أكثر مما يريد وترك السيدة غارقة في أحزانها.

استقبل يوسف شيكوريل وسالفاتور شيكوريل أشقاء سلامون جموع المعزين داخل أسوار القصر الكبير بعد أن قاموا بدفن جسده بمقبرة الأسرة وتوافد على العزاء مصريون وأتراك وأجانب يحملون العديد من الجنسيات.. وكان سلامون نفسه أول من حضر مراسم العزاء.. حضر شبحه الرافض والناقم والحزين ينظر من بعيد على مشهد رحيله، عندها أدرك أنه في عالم آخر وأن علاقته بالحياة انتهت إلا داخل هذا القصر الكبير، وكأن الخوف يلازمه حتى بعد موته ففي حياته كان الخوف من المصير وتطارده فكرة الرحيل عن مصر وفي موته أصبح خوفه على القصر الكبير الذي يشكل آخر علاقة له بالدنيا.

(6)

هي: هل الحب يقتل؟

هو: وما أنا إلا شبح لإنسان قتله حبك

وضعت كفها على قلبه فأعادته للحياة

وأضاءت داخله المظلم بابتسامة.

عندما وصل سعيد إلى قصر شيكوريل ودار حول أسواره ليستكشفها ويبحث عن المكان الأنسب الذي يستطيع من خلاله العبور إلى الداخل.. وجد الأسوار في متناوله بل إنه تجاوز الأضخم والأعلى ولكنه لن يتمكن من العبور.. تأكد أن ضجيج دقات قلبه ستفضحه وتعجب لأمر أطرافه المرتعشة وشعر بالمرض الشديد فجلس تحت شجرة احتضنته بحنان وضمته حتى نام وكأنها أم تفعل كل ما تستطيع حتى ينام طفلها الذي يحاول أن يؤذي نفسه.. ورأى في أحلامه منيرة وهي تسير خلفه.. تعجب وتساءل:

ـ ألست أنا من اعتاد أن أكون خلفها!؟

ـ ألست أنا الذي يراها دائمًا دون أن تراه!؟

ـ إذًا ما الذي تبدل.. حاول أن يتوقف ولكنه لم يستطيع وكأنه مدفوع من الخلف حتى وصل إلى طريق مسدود فتوقف حتى جاءت من خلفه فانشغل بخصلة من شعرها الذهبي يداعبها الهواء.. ابتسمت وهي تشير إلى الأمام فواصل المسير بعد أن مهدت له الطريق وعادت هي لتسير خلفه.

استيقظ سعيد من أحلامه على ركلة من قدم قوية انتفض جسده على أثرها وبفزع هب واقفًا وبدء يستوعب ما يحدث من حوله تدريجيًا حيث وجد نفسه في أحضان ثلاث رجال أدرك هويتهم دون أن يسأل.. ثلاث رجال شرطة لم يحاول الفرار منهم لأنهم كانوا أحكموا قبضتهم عليه.. ذهب معهم دون أي مقاومة ومع ذلك تعرض للكماتهم العنيفة ولشتائمهم القبيحة وألقوا به داخل عربة مغلقة ومظلمة وظلت العربة ثابتة حتى جاء ضابط كبير وأمر أحد الأفراد الثلاثة بتفتيشه فأخرج هذا الأحد من جيبه محفظة نقوده وبها بطاقته الشخصية وأغلقوا العربة من جديد فعاد الظلام وسعيد يحاول أن يستوعب ما يحدث له.

ـ إيه اللي جابني هنا؟

... لأقتل صاحب القصر.

ـ لكن ليه أقتله؟

ـ من أجل منيرة.. منيرة.. منيرة، ردد الاسم بصوت مسموع فتحول الظلام الذي يحاوطه إلى نور رأى من خلاله حلمه اليتيم.. نعم يتيم، لأنه لم يحلم بمنيرة من قبل.. كانت تستعصي حتى على أحلامه واستعاد تفاصيل الحلم ولم ينشغل بكل الصخب الذي يحاوطه خارج العربة ولا في المشكلة الكبيرة التي وقع فيها إلى أن تحركت العربة حركة مفاجئة وعصبية جعلته يصطدم بكل جوانبها الأربعة قبل أن تتخذ طريقها وتسير في طريق ممهد ومستقيم.

لم يعلم الكثير عن خبر القبض على سعيد فقد كانت كل الصحف منشغلة بأقوال السيدة وتقارير عن سلامون القتيل وأخرى عن القتلة ولم تعلم أسرته ولا أصدقائه أما منيرة فقد

علمت بالصدفة من محامي عائلة شيكوريل الأستاذ علي السيد الذي كان يتردد على المحل وكانت تجمعه بمنيرة علاقة قوية، وعندما دخل المحل صباح اليوم التالي من الحادث.. التف جميع عمال المحل من حوله ليعرفوا تفاصيل الحادث ووقف بينهم يحكي وقبل أن يسرد لهم أقول السيدة أرملة سلامون بك أخبرهم عن الشاب سعيد الذي تم إلقاء القبض عليه فقاطعته منيرة لتسأله عن سعيد فقال: لا أعرف عنه الكثير ولكن يبدوا إنه بريء، لأن أقوال زوجة سلامون بك تبرئه وبعد أن إنتهى وجاوب على العديد من الإسئلة وفي طريقه إلى الخروج سمع صوت مرتبك يناديه.. إنه صوت منيرة، ما الذي حمل الصوت الجميل والقوي دائمًا بكل هذا الارتباك.. توقف الرجل واستدار ليجد منيرة مهمومة وقلقة فجذبها من معصمها وأجلسها على أحد المقاعد وجلس بجانبها وسألها عن ارتباكها وقلقها وهمها؟

قالت:

ـ سعيد اللي اتقبض عليه.

رد الرجل بهدوء:

ـ أنتِ تعرفيه؟

ـ مش متأكدة بس عرفني أي حاجة عنه عشان أتأكد هو ولا لا.

قلب الرجل العجوز صاحب الوجه ذي اللون الأسمر والذي تعود جذوره إلى صعيد مصر، قلب بعض الأوراق التي أخرجها من شنطة يده العتيقة والتي تشكل جزءا كبيرا من حضوره بجانب النظارة المعلقة على صدره بسلسلة تلتف حول العنق النحيف وحمل الرجل بأطراف أصابعه النظارة وثبتها على أنفه الغليظ وقلب الأوراق ثم

نظر إلى منيرة وقال:

ـ سعيد جمعة عبد الخالق 28 سنة.

وقبل أن يكمل الرجل انتفضت منيرة واقفة فجذبها الرجل من ذراعها وأعادها إلى مقعدها مرة أخري وسألها من جديد:

ـ أنتِ تعرفيه يا منيرة؟

ـ أعرفه.. شقيق صديقتي وجاري.

قال الرجل:

ـ بلاش تقلقي.. شهادة زوجة سلامون تبرئه وما هي إلا أيام وتتضح الحقيقة كاملة.

بحثت منيرة عن مفتاح السلسلة الذهبية التي تزين رقبتها منذ أيام وقد استطاعت توفير مرتب شهر كامل لتتمكن من شرائها حتى وصلت للمفتاح الذهبي وهي تقول للأستاذ علي:

ـ خد السلسة دي وبيعها وبسعرها دافع عن سعيد يا أستاذ علي.

تعجب الرجل وقال:

ـ هو قريبك يا منيرة؟

ـ جاري وأخو صديقتي والله.

فأعاد إليها السلسلة وهو يبتسم ثم قال:

ـ يكفي هذا الشاب من الدنيا النظرة التي أراها في عيونك الآن.. يكفيه خوفك وقلقك من أجله لكي يعيش ما تبقي من عمره في أمن وطمأنينة.. إليكِ ذهبك كما هو خوفك وقلقك أما أنا فلن أستطيع أن أتولى أمر الدفاع عنه لأني محامي عائلة شيكوريل ولكني سأوكل هذه المهمة لزميل لا يقل

خبرة عني والأمر لا يستحق التكلفة التي تدفعك لبيع أشيائك وعندما يخرج جارك وشقيق صديقتك بالسلامة سأخبرك بالتكلفة ولو أنها لا تستحق فأنا في مقام والدك ويجب أن أتحمل عنك هذا الأمر البسيط ولكني سأحصل منكي على أي نقود لاحتفظ بها لأنها ستكون أثمن أجر أحصل عليه في حياتي وسأخبرك بالتفاصيل وبكل ما هو جديد.

ثم انصرف الرجل بعد أن طمأن منيرة التي عادت إلى عملها وهي شاردة، وفي اليوم التالي، الثالث للجريمة جاء الأستاذ علي وبحث عن منيرة بين العاملات حتى وجدها وقبل أن يصل إليها كانت قد تخطت الجميع ووقفت أمامه.

فقال الرجل:

ـ قامت الشرطة بالأمس يا منيرة بالقبض على الجناة الأربعة وبالتحقيق معهم اعترفوا بجريمتهم ولم يدلوا بأقوال تدين جارك ونفوا أي صلة له بالحادث، وسيخرج اليوم وقد لازمه بالأمس أثناء التحقيق محامي زميل وسيرافقه اليوم حتى إخلاء سبيله.

قالت منيرة في سعادة:

ـ إمتي هيخرج؟

ـ بعد الثانية ظهرًا تقريبًا.

شكرت منيرة الأستاذ علي ومنحته قبله على خده وانطلقت في سعادة غامرة وعادت إلى عملها وشعر الرجل بالسعادة تجاه سعادة هذه الفتاة الجميلة.

بعد الثانية ظهرًا بنصف ساعة حصل سعيد على إذن بالإفراج

وقـد رافقـه محامي لا يعرفه ولكنه انصـاع لأوامره بحكم أنه لا يعـرف ماذا يفعل وكيف يتصرف، وفي طريقه إلى الخروج سـأل المحامـي عن سـبب الدفاع عنـه ومن وكله فأجـاب الرجل إجابة لم ترد على اسـتفهامه، وحين وصل إلى سـلم قسـم الشـرطة رأى النور الذي غاب عنه منذ أكثر من يومين.. وضع كفيه على وجهه ليحمـي عينيه من قوة أشـعة الشـمس فرأى من بيـن أصابعه منيرة تجلس تحت شجرة أمام قسم الشرطة فتعجب وحاول أن يهرب منها ولكنهـا تنبهت له وتنبهـت لمحاولة هروبه، وهـى تعلم أن القبض على سعيد ووجوده عند القصر كان له سبب لابد أن تعرفه.. قامت مسرعة خلفه ونادت عليه فتوقف إلى أن وصلته.. أشارت إليه كي يكمل سـيره فتذكر حلمه وابتسـم.. كانت تسير بجانبه صامتة وقادتـه إلى ميدان كبير في وسـط القاهـرة بعد أن عبرا كوبري قصـر النيـل وجلسـا معًا فـي حديقة الميـدان الكبير ولـم ينطقا بكلمة واحدة طوال الطريق إلى أن كسرت منيرة حاجز الصمت:

ـ ألف مبروك البراءة.

رد سعيد وهو يداري الخجل:

ـ تسلمي يا منيرة.. أنتِ اللي وكلتي المحامي؟

ـ أه أنـا اللـي وكلتـه مينفعـش أتخلـى عنك في ظـرف زي ده خاصـة إن الأسـتاذ علي محامـي عائلة شـيكوريل أكد لي إنك مظلوم ولكن إيه اللي وصلك لقصر شيكوريل؟

قال دون أن يترك لنفسه مجال للتفكير:

ـ كنت رايح أقتل الخواجة.

ـ أنا بتكلم بجد كنت بتعمل إيه هناك؟

ـ والله كنت رايح أقتل الخواجة.

صرخت منيرة:

ـ يعني أنت اللي...

قاطعها سعيد قبل أن تُكمل:

ـ لا مش أنا اللي قتلته ومعرفش إزاي ولا إيه اللي حصلي.. أنا نمت تحت شجرة جنب سور القصر وفضلت أحلم بيكي طول الليل.

ـ إيه اللي أنت بتقوله ده؟

ـ أنا بقولك اللي حصل من بعد ما قابلتك آخر مره لما قولتيلي أنت طفل.. فاكرة؟

ابتسمت وهي تنظر إليه بعناد:

ـ طبعًا فاكرة.

ـ من يومها وأنا بحاول أشوف أي طريقة تقربك مني مش لاقي.. نصحني صديق بالتفكير في أي وسيلة تمنعك عن الشغل في محل الخواجة.

ـ ليه؟

ـ قالي إن طول ما إنتِ شغالة في المحل الكبير ده وبتقابلي الباشوات مش هتعبريني.

ـ وبعدين؟

ـ طلعت في دماغي أقتل الخواجة.

ـ طيب الخواجة مات وأنا لسه بشتغل وهشتغل.

صمت سعيد إلى أن ألحت عليه منيرة بنظرتها حتى يرد فقال:

ـ مش عارف هو ده اللي أنا فكرت فيه.

ـ لأن إنت عاجز ومتعرفش غير القتل وعمرك ما فكرت في يوم صح عشان ترضيني وتقربني منك.

ـ معقولة أنا معرفش غير القتل طيب اطلبي المستحيل يا منيرة وأنا أعاهدك أنفذه.. إيه اللي يرضيكي؟

وضعت كفها على كتفه ونظرت في عينيه:

ـ أنا عايزة سعيد اللي بيحب.

ثم رفعت كفها ونظرت في الفراغ وأردفت:

ـ مش سعيد اللي بيقتل.

ـ أنا سعيد اللي حبك.

ـ أنت سعيد اللي تايه.. سعيد اللي بيقتل عشان بيحب والحب عمره ما كان قاتل.

ـ لا الحب قاتل يا منيرة وأنا أكبر دليل.

ـ أنت قاتل مش قتيل.

ـ فعلاً قتلت وطول ما أنتِ بعيده عني هقتل.

ـ وطول ما أنت بتقتل هكون بعيدة عنك.

وهمت لتذهب..

قال سعيد مرتجيًا:

ـ اطلبي يا منيرة أعمل إيه عشان ترضي عني؟

ـ تقدر تعمل المستحيل؟

ـ عشانك أقدر.

ـ طيب إنت قتلت كام إنسان؟

ـ قتلت 4 ولو عايزاني أقتل 1000 أنا قدها.

ضحكت منيرة ضحكة سمعها القادم من كوبري قصر النيل وتحرك لها الأسدان المتأهبان الناظران إلى الميدان ثم قالت بعد أن سيطرت على نفسها:

ـ لا أنا عايزاك ترجع الأربعة اللي إنت قتلتهم للحياة.

قال سعيد متعجبًا:

ـ إنتِ اللي بتهرجي أهو.

ـ لا والله بتكلم بجد مش إنت بتقول تقدر تعمل المستحيل.

نظر إليها وهي تعيد أناقتها بعد أن حركتها الضحكة عن مكانها.. أعادتها بحركات سريعة.. مسحت بأطراف المنديل الكحل الذائب عن جفونها.. صنعت من أناملها مشط أعادت به اصطفاف شعرها الثائر.. ضمت شفتيها لتعيد تثبيت أحمر الشفاه.. سحبت بتلقائية أطراف "الجيب" السوداء بعد أن أظهرت روعة ركبتيها وبياض جسدها.. ومرت بكفيها على قميصها السماوي في تناغم تلقائي ورائع بين كفيها وبروز صدرها المفاجئ الذي يمثل لسعيد قمة الدنيا ومنتهاها.. أدرك الحوار الراقص بين كفيها وخصرها فأعادت كي قميصها من جديد واكتوى معه قلب سعيد واكتوت غرائزه الجامحة.

ثم تنفس مخرجًا مع زفيره عاصفة صيفية مختلطة بنيران الساحر الماهر وقال:

ـ نعم وسأعيدهم للحياة.

ـ وأنا أوعدك يا سعيد.. مش هكون لغيرك وواثقة في قدرتك على إصلاح ماضيك.. روح يا سعيد وعوض كل من فقد

أب أو ابـن أو أخ وأطلـب العفو منهم عشـان يعفـوا اللّٰه عنك.. كلمهـم عن حبـك.. كلمهم عني.. ما أجمـل كلمات الحب علـى لسـانك.. إفتح لهم قلبك ليعرفوا جنتـك بعد أن اكتووا بنار طيشك وأنا في انتظارك كل عمري.. أنا من الآن راهبة وزاهدة عن الدنيا ليوم عودتك.

قال سعيد:

ـ وأنا أوعدك.. وعد من طفل تعلق بكِ.. وعد من رجل يعشقك.. يومًا ما سأعود إليكِ أو أموت وأنا أحاول.

وخرج سعيد من الميدان الكبير ثائرًا.

(7)

محكمة

فـي عـام 1927م حصـل الطبيـب النمسـاوي يوليـوس فاجنـر (1857_1940م) علـى جائـزة نوبل في الطب وكانت رسـالته التي قدمها للحصول على درجة الدكتوراه عام 1880م بخصوص أصل وأسـباب تصارع نبضات القلب ولكنه بعد فترة ولأسـباب مجهولة ترك مجال رسـالته وانتقل إلى مجال الأمراض النفسـية والعصبية وكان فاجنر متعصب للنازية ويعادي السامية أشد عداوة وفي عام 1903م طلـق زوجته اليهوديـة "بالبين فرومكين" وبعد موته وُجدت أوراق ومستندات أثبتت انتمائه للحزب النازي.

وفـي 19 إبريـل مـن عـام 1927م كان الجناة الأربعـة يقفون في القفص الحديدي ودقات قلوبهم تعدو مسـرعة وكأنها تسـابق بطل العالم أحمد بوقرة الفرنسي الجنسية والجزائري الأصل والذي حصل على ذهبية ماراثون دورة الألعاب الأولمبية عام 1928م والتي أُقيمت في مدينة أمسـتردام عاصمة هولندا ، وبعد شـهر ونصف من حادث مقتل سـلامون شـيكوريل نطق القاضي محمد بك مظهر بالحكم ولم تستغرق التحقيقات أكثر من شهر بعد أن ألقت الشرطة القبض علـى الجنـاة الأربعة وأولهم العقل المدبر للجريمة انسـتي خريسـتو اليوناني اليهودي والذي كان يعمل سـائقًا لدى سـلامون والبالغ من العمر 32 عامًا وأثبتت التحقيقات أن خريسـتو نفذ جريمته للانتقام

والسرقة معًا بعد أن طرده سلامون لسلوكه الشاذ.

وكان ثاني الجناة هو الشاب اليهودي جونا داريو ابن الـ 20 ربيع وأعترف بكل شيء ولم يدع مجال للانكار من جانب باقي المتهمين وأعترف بأنه اقتحم غرفة سلامون مع باقي المتهمين بعد أن خدعهم خريستوا وأكد لهم أن كل شيء تم التخطيط له بإحكام ولن يفتضح أمرهم ومثل للمحققين كيف نفذوا جريمتهم وقد لجأ إليه خريستو لأنه يعيش بغرفة داخل القصر وهو من سهل لباقي الجناة التسلل إلى الداخل من خلال باب البدروم الذي يحمل نسخة من مفتاحه وأعترف بأنه من أنقض على زوجة سلامون وقيدها ثم قيد سلامون بإحكام وأقر بأن خريستو هو من طعن الخواجة عدة طعنات قاتلة بعد أن حاول الخواجة مقاومتهم.

أما المتهمين الثالث والرابع هما الإيطالي جوناردو جريمالدي وقد قاما بتخدير زوجة الخواجة سلامون فقط ولم يشاركا في القتل، والرابع كان إيطالي أيضًا ويدعى إدواردو وقد عثرت الشرطة على المجوهرات المسروقة في منزل جونا داريو بعد أن أخفاهم تحت بلاطة في أرضية منزله.

وقد أُحيل الجناة إلى محكمة الجنايات وكانت المحكمة التي يرأسها مظهر بك وزميليه القاضيين مصطفي محمد ومحمود جعفر وجلس على كرسي النيابة مصطفى حنفي بك.. كانت مكتظة بالحضور حيث حضرت كل أسرة القتيل وحضر رئيس الطائفة اليهودية يوسف بك قطاوي والعديد من الأصدقاء والتجار الذين جمعتهم يومًا علاقة بالقتيل والعائلة.

ووقفت زوجة الخواجة في قاعة المحكمة تحكي ما شاهدت في ألم وهي تجهش بالبكاء وتنظر للقاتل خريستو داخل القفص وهو

شارد شاحب اللون وقد سيطر عليه الرعب من المصير وأخذت تسرد كيف استغل طيبة قلب سلامون الذي لم يسلمه للشرطة بعد أن سرق بعض محتويات القصر.. ثم أشارت للشاب جونا داريو الذي يبكي بكاء مرًا حيث خانهم بعد أن ائتمنوه وسمحوا له أن يعيش بينهم.

وأخيرًا نطق سيادة القاضي محمد بك مظهر بالحكم بعد أن انفرد بعضوي المحكمة في غرفة المداولة لوقت وجيز.. أحال أوراق المتهمين الأربعة إلى مفتي الديار المصرية وقد نُفذ الحكم عليهم بالفعل.

***

خلية نحل شكلها العاملين في محل شيكوريل وتلقائية جميلة ومرونة في العمل ولم يتأثر المحل بمقتل سلامون بل بالعكس فموت الرجل صنع أكبر إعلان تجاري وجعل اسم شيكوريل يتردد على ألسنة الجميع لدرجة أن هناك من ذهب للمحل بدافع الفضول أكثر من حاجته للشراء، وكانت منيرة قمر في بدره وسط نجوم العاملين المتألقين في ملابسهم البيضاء والزرقاء ووقفت مدام ميرال تتابع سير العمل وحركة العاملين إلى أن يعود يوسف شيكوريل وسالفاتور أو أحدهم حيث توليا معًا إدارة تجارتهم بعد غياب سلامون ويبدو أن المحل لم يتأثر كثيرًا بالتغير الذي طرأ والحياة فعلاً لا تتوقف على أحد فكل يوم راحلون عنها ومع ذلك لم تتأخر الشمس يومًا عن موعدها ولم يختل تواتر الشهور والفصول والسنين.

ووقف القصر الكبير شامخًا وسلامون الشبح بداخله يتنقل ما بين غرفة نومه ومكتبه.. ينظف البيانو ويجلس على كرسيه الخشبي ويعزف معزوفة المطر.

(8)

هي: احتفظت بما تبقى من ملامحك في كتاب أنت تعرفه.

هو: نعم أعرفه ولكن تغيرت الملامح.

هي: ملامحك في كتابنا المفضل تتغير أيضًا مع الأيام.

هو: كيف؟.

هي: أنت زرع جميل وسط كلمات الحب.

ترك سعيد الميدان الكبير بعد أن ودع منيرة وكان يعلم خطورة ما هو مقدم عليه.. كان يعلم أن أمامه طريق طويل لابد أن يقطعه.. طريق إعادة قتلاه إلى الحياة.. عاد إلى بيته ودخل غرفته مسرعًا وأغلق بابها من خلفه وجلس على مكتبه الصغير وأخرج من أدراجه ثلاثة كتب وأزاح عنهم التراب.. هذه الكتب هي كل ما قرأه سعيد في شبابه وهم (العدو الغامض، جريمة في ملعب الجولف، كبرياء وتحامل) والكتاب الأول والثاني للكاتبة الإنجليزية "**أجاثا كريستي**" (1890 ـ 1976م) ـ والتي اشتهرت بكتابة روايات الجرائم والإثارة وحققت بعض مؤلفاتها مبيعات تجاوزت المليون نسخة وترجمت إلى ما يزيد عن ثلاثين لغة.. ونشرت رواية (العدو الغامض) عام 1922م ـ وعثر عليها سعيد بعد أن اقتحم هو ورفاق السوء منزل بغرض السرقة فوجدها

فـي مكتبة المنزل الصغيرة فلفت انتباهـه العنوان وبعد أن قرأها بحـث عن كتب أُخـرى لنفس الكاتبـة حتى وجد روايـة (جريمة فـي ملعـب الجولـف) والتي نشـرت عـام 1924م، وجدهـا مع أحد باعـة الكتب الذيـن يتجولـون ببضائعهم على المقاهـي، وعندما يتمكـن منهـم التعـب يجلسـون بجانـب سـور الأزبكيـة للراحـة بالقـرب مـن محـل شـيكوريل، حيـث ينتظر منيـرة دائمًـا.. هذا السـور الـذي يلتف حـول حديقة الأزبكيـة التي أُنشـأت في عهد الخديوي إسـماعيل وجلب لها الأشـجار والنباتـات النادرة من عدة دول أوروبية، وتطور السـور بعد ذلك وأصبح سـوق للكُتب النادرة والقديمـة التي يبيعها أصحابها بغرض الانتفاع المادي أو يشـتريها التجـار من المكتبـات ودور النشـر وورثة الكُتـاب والمفكرين وتحـول إلى قبلـة لمحبي القـراءة وتخلى بائعو الكُتـب عن التنقل بين المقاهي وافترشوا سور الأزبكية.. وقد ساعدت هذه الكتب سعيد كثيرًا وخرج منها بأفكار جديدة طور بها جرائمه وأذهلت زملائـه.. أما الكتاب الثالث (كبرياء وتحامل 1813م) فهى رواية حب للكاتبة الإنجليزية "**جين أوستن**" (1775_1817م).. كان قد حصل عليها وهو يبحث عن كتب كريستي؛ فهي رواية تجمع بين الرومانسـية والكوميديا وتحكي قصـة عائلة من أب وأم وخمس بنات وتسـعى الأم لتزويج بناتها الخمسة وإيجاد الرجال المناسبين لهن.. والإبنة الثانية في الترتيب هي (إليزابيث بينينت) والتي وقعت فـي حب السـيد "دارسـي" حيـث بادلها الحـب وغلب علـى حبهما الغرور والكبرياء ووجد سـعيد أن هناك صفات كثيرة تجمع بين إليزابيـث بطلـة الرواية وبطلته منيرة وبعـد أن إنتهى من قراءة هذه الرواية ذهب في اليوم التالي واشـترى نسـخة أخرى وهذه النسـخة وجدتهـا منيرة ذات يـوم في غرفتها متروكة بدقة حيث توسـطت

سريرها الصغير كطفل رضيع وضعته أمه برفق ففزعت في بداية الأمر وسألت والدها وأخاها عن أمر الكتاب فلم تجد لديهم أي جواب، وعندما هدأت فكرت وتحدثت إلى نفسها قائلة:

ـ من غيره يقدر يتخطى البيبان المغلقة، ويل لك مني أيها المجنون.

ثم ابتسمت وفتحت أول صفحات الرواية ولم تنام إلا بعد أن أغلقت آخر صفحاتها.

أخرج سعيد من داخل كتبه أربع ورقات كان قد اقتصها من مجلة المصور وتحكي الورقات عن قتلى سعيد الأربعة فرتبهم ترتيب زمني وأمسك بأولهم حيث تروي قصة قتل بشعة في إحدى حارات حي الطالبية.. الحي القديم الذي أُنشيء مع بناء القاهرة الفاطمية وأُطلق عليه في البداية حي "الباطلية" بعد أن استولى عليه مجموعة من العسكر بالباطل وشيدوا فيه منازلهم.

"**علي**" أول قتلى سعيد وكان شاب في الثلاثين من عمره قتله سعيد وهو لا يعرف بأي ذنب قُتل، وقبض فيه بضع جنيهات.. هذه الجنيهات مازالت في أحد أدراج سعيد.

أعاد سعيد كُتب كريستي حيث كانت بعد أن وضع فيها ثلاث قتلى ووضع الورقة التي تحمل أول قتلاه في كتاب الحب والذي رافقه وعاش معه رحلة المستحيل وترك بعدها المنزل ومعه حقيبة ملابسه، ومبلغ كبير من المال، وودع فاطمة وهي نائمة بقبلة على جبينها، ثم ودع أمه بقبلة على كفها العجوز بعد أن تناول معهما في المساء العشاء الأخير، وهو لا يعلم عن العشاء الأخير ليسوع مع تلاميذه ولا يدري ما قيمة لوحة الرسام الإيطالي "ليوناردو دافينشي" "العشاء الأخير" والتي رسمها في أواخر القرن

الخامس عشر للمسيح وسط تلاميذه.

وصل سعيد حي الطالبية مع الصباح وذهب مباشرة إلى الحي الذي عاش فيه قتيله الأول وفيه انتهت حياته وكان حي فقير وبأس، وبه مقهى وحيد يتوسطه، قصده سعيد وجلس على مقاعده القديمة وترك بجانبه حقيبة ملابسه الزرقاء وظل يتفحص الحارة بنظره، يتنقل بين مبانيها القديمة إلى أن أفزعه صبي المقهى:

ـ تشرب إيه يا أستاذ؟

ـ أشرب شاي.

هكذا رد سعيد باقتضاب وعاد يتفحص الدكاكين التي مازالت مغلقة بأبوابها الحديدية العتيقة إلى أن جاء الصبي ومعه الشاي:

ـ اتفضل الشاي.

وقبل أن ينصرف سأله سعيد عن مسكن للإيجار في الحارة فقال الصبي بعد تفكير دام لثوان:

ـ عليك وعلى الست إنصاف ـ وهو يشير إلى بيت من ثلاث طوابق يقابل المقهى ـ وهي صاحبة الدكان الكبير "وأشار إلى دكان أسفل المنزل" استناها شوية هتنزل تفتح المحل.

راقب سعيد المحل فيما يقرب من ساعة نزلت سيدة في بداية العقد الخامس من عمرها "هكذا خمن سعيد" ترتدي السواد وعلى وجهها أحزان جيل ضاع عمره في الشقاء.. انتظر سعيد نصف ساعة أخرى إلى أن تجهز السيدة بضاعتها للعرض وعرف أنه دكان بقالة بسيط وهو يحاول أن يتعرف على المكان الذي قتل فيه علي ليلاً، وبعد أن فشل في استكشافه قام إلى السيدة

وبادرها بالتحية:

ـ صباح الخير يا حاجة.

ردت السيدة بصوت ذكر سعيد بصوت أمه:

ـ صباح الخير يا إبني.

ـ كنت بسأل عن سكن للإيجار.

وقبل أن يكمل قاطعته السيدة وهي تشير إلى كرسي خشبي وضع في مدخل المحل:

ـ اتفضل يا إبني إقعد.

جلس سعيد منهكًا من أثر الطريق الذي قطعه سيرًا بعد ليلة جافاه النوم فيها.. بعد دقائق عادت السيدة وهي تجر كرسي خشبي على الأرض محدثًا صوت نقير لاحتكاكه بالأرض الخرسانية الصلبة ووضعته مقابل الكرسي الذي يجلس عليه سعيد وقالت بعد أن جلست:

ـ أهلاً بيك عرفني بنفسك يا إبني.

ـ أنا سعيد من بولاق أبو العلا.

قاطعت السيدة سعيد من جديد:

ـ وليه تسيب بولاق وتجي تعيش هنا؟

ـ سبت بيتنا الصغير لأخويا إتجوز فيه وسبت بولاق بعدما ضاق بي الحال والعيشة هناك بقت مستحيلة.

أومأت السيدة برأسها وقالت:

ـ أنت بتشتغل إيه؟

ـ كنت بشتغل سواق مع تاجر خضار وكنت بنقل الخضار

مـن المزارع اللي فـي ضواحي القاهرة للوكالة كل يوم بعد الفجر.

لـم يبـدوا على السـت إنصاف أي تشـكك في كلمات سـعيد التلقائية والتي لم تكن معدة بكل هذا الاتقان ولم يعلم سعيد هل اقتنـاع السـت كان لمهارته في الخداع أم لنواياه الطيبة، ولكن يبدو أن السـيدة في حاجة إلى المال فقد منحته مفتاح شقة بالدور الأخيـر مـن المنزل بعد أن اتفـق معها على الإيجـار، ومنحها قيمة شـهر مقدم وصعد سـلالم المنزل وفتح باب الشـقة وبدا له للوهلة الأولـى أنها لم تُسـكن منذ زمن بعيد وتحتـاج إلى عمل كثير من أجل طرد أثر غياب البشـر عنها وإعادتها للحياة فالبيوت تموت إذا غاب عنها سـاكنيها.. ترك حقيبة ملابسـه على الأرض وبحث عن غرفـة النـوم حتى وجدها وألقى جسـده المنهك على السـرير ونام قبل أن يفكر في أي شـيء ورأى في أحلامه منيرة من جديد وهي مبتسـمة وسـعيدة إلـى أن غابت حين شـعر أن السـرير يضيق به، وأحس أن هناك من يشاركه فيه.. تحسس بيده قبل أن يفتح عينيه فسـقطت يده على وجه إنسـان، ففتح عينه في فزع فقد وجد رجل غـارق في دمائه.. تأمـل ملامحه وهو فاقد القـدرة على الحركة.. "إنـه علي"هكذا حدث سـعيد نفسـه.. حاول بصعوبة أن يسـتفيق وينهض إلى أن سـقط من فوق السرير وشعر أنه يسقط من السماء ومصيـره في باطن الأرض.. افترش جسـده المسـاحة بين السـرير والـدولاب، فـأدرك كابوسـه الـذي حـال بينـه وبين وجـه منيرة المبتسم فقام وجسده يتصبب عرق، خرج مسرعًا إلى الصالة وهو يتخبط في جدرانها وأثاثها إلى أن وصل إلى حقيبة ملابسه وأخرج منهـا ملابس نظيفة واتجه إلى الحمام البسـيط لأول مرة لم يكن

لديه رفاهية الاختيار.. كان عليه أن يعيش في أي مكان يمكنه من إتمام مهمته.. خرج من الحمام وقد أزاح عن جسده أثار نومه وأثار كابوسه وتوجه إلى باب الشقة وعندما أورب بابها تاركًا مجالاً للنور ليضئ السلم، رأى فتاة قد إرتسمت ملابسها الداخلية السوداء على جسدها الأبيض الشمعي نصف ليل أخفي كمائنها ونصف نهار أظهر مفاتنها وقد حملها شاب يافع من على الأرض وكان في ذروته الجنسية بعد أن جردها من ملابسها وهو نصف عاري، وهي غائبة في نشوتها، صدرت منهما أصوات تنم عن نهم النشوة، وذابا في جسدًا واحد، فصله من جديد ظهور سعيد المباغت، السلم المظلم دائمًا هو المكان الذي يُفرغ فيه الشاب والفتاة شهوتهم إلى أن أضاءه سعيد.

أغلق سعيد الباب معلنًا انتهاء المشهد حيث أعاد للسلم ظلامه الأعمى تاركًا الفتاة تلملم جسدها المنفرط، قُتلت شهوتهما، صعد الشاب إلى سطح المنزل، ونزل سعيد غير مبالي بما رأى وقد حل المساء على الحارة فقصد المقهى وجلس على مقعد قديم أفقده توازنه فسقط على الأرض وقام بمساعدة رجل طاعن في السن جلب كرسي آخر وهو يقول لسعيد:

ـ معلش يا ابني إن شاء الله هجيب كراسي جديدة قريب.

قال سعيد وهو يمحو التراب الذي إلتصق بملابسه:

ـ حصل خير.. هو إنت صاحب القهوة؟

ـ أه يا ابني والله لولا الظروف ما كنت هسيب الكراسي المعدومة دي بس نعمل إيه كل ما نوفر قرشين يجوا ولاد الكلب وما يمشوا إلا واحنا على الحديدة مش أنا بس بيقلبوا كل أهل الحارة ولو مدفعتش بالذوق هتدفع بالعافية

اللّه يرحمه بقى اللي كان حامينا وعاملينا قيمة.. إلا قولي يا ابني تشرب إيه؟

قال سعيد وهو متطلع لكلام الرجل:

ـ أشـرب شـاي.. بس مين ولاد الكلب ومين اللي كان بيحمي الحارة؟

هتف الرجل لصبي المقهى وأمره بجلب الشاي ثم تطرق قائلاً:

ـ ولاد الكلـب هما الهليبـة اللي عاملين فيهـا فتوات ويا بخت الحارة اللي ليها فتوة بيحميها واللي ما لهاش بيكون نصيبها من نصيبنا..

ثم صمت متأسيًا وقد لمعت دمعة في عينيه وأردف:

ـ ألـف رحمة ونـور عليك يا علـي كان في نفس سـنك تقريبًا يـا ابنـي وكان بيوقف فـي وش الكلاب وقاطـع رجلهم عن الحارة.

وقـع كلام الرجـل على سـعيد كحجـر ملتهب سـقط في بئر ماء رطب، وقد منحه صبي المقهى وهو يضع الشـاي أمامه فرصة للتماسك وقبل أن يتكلم سأله الرجل:

ـ إنت مين يا ابني ومنين وبتعمل إيه هنا؟

ـ أنا سعيد ساكن جديد في الحارة في بيت الست إنصاف.

قال الرجل:

ـ الست إنصاف دي أم علي اللي حكيتلك عنه.

اهتز كوب الشاي في يد سعيد من رعشة أصابت أطرافه ونظر للست إنصاف في محلها وقد جلست بجوارها الفتاة التي رأها لأول مرة وهي شبه عارية على السلم فوضع الكوب من يده وقال:

ـ ومن اللي جنب الست إنصاف دي يا حاج؟

نظر الرجل إلى محل البقالة حيث تجلس الست إنصاف:

ـ دي فتحية بنتها الله يكون في عونها مات أبوها وبعده أخوها ومش فاضل ليها في الدنيا غير أمها وعايشين على إيجار البيت ومكسب الدكانة اللي أنت شايفها دي وياريت ولاد الحرام سيبنهم في حالهم لا كمان بيدفعوا الإتاوة مضاعفة عن البيت والدكانة.

قال الرجل كلامه وانصرف بعد أن استئذن سعيد وعندها عرف سعيد طبيعة مهمته ليعيد علي إلى الحياة.

(9)

البنت أخت، البنت صديقة، البنت حبيبة، البنت حتى ولو غريبة.. البنت نعمة.

لم تشعر منيرة بالفقد كشعورها يوم أن رحلت أمها وتركتها في سن العاشرة، وتركت لها أخ وحيد أكمل عامه الأول، وأب بسيط لا يعلم عن الدنيا إلا القليل يذهب إلى عمله في الصباح الباكر ويعود منهكًا في المساء، تحملت منيرة غياب أمها وحدها وهي التي كانت ترعى أخاها في مرض أمها وتقوم بشئون المنزل، وهي في سن الطفولة لم يجد أبوها الحزين على رحيل زوجته داع للزواج، ولم تشعر منيرة يومًا بالضجر فقد كانت تسعد لسعادة أسرتها البسيطة وتسعى جاهدة لرسم البسمة على وجوههم، وعندما كبر أخوها ووجدت أن هناك إمكانية للعمل بجانب إدارة شئون البيت الصغير.. سعت إلى ذلك وقامت بواجبتها المنزلية وعملها في محل شيكوريل على أكمل وجه، حيث أثبتت جدارتها في العمل دون أن تترك رعاية والدها وأخيها، وحين حصلت على مرتبها الأول لم تفكر في نفسها بل أضافت على المرتب حتى تكمل سعر بدلة فاخرة في محل شيكوريل تناسب محمود ابن الـ 12 ربيعًا بعد الحصول على تخفيض خاص بحكم عملها في المكان.. يومها نظرت إليها مدام ميرال وهي تقول:

ـ ما أروع قلبك يا منيرة وما أجملك.. وضمتها بقوة.

ارتدي ابن الجنايني رداء أبناء الباشوات والتجار لأنه أخو منيرة..

أما عم سالم الجنايني فلم يشعر يومًا بمرضه إلا بعد أن ترى منيرة أثره على جسده فتخبره وتجبره على الذهاب معها للطبيب.. تشتري له ملابسه كما تعلمت من أمها.. تعرف مقاس جسده ومقاس قدمه ولم تُخطئ يومًا في تقديرهما ، وكان أبوها يردد دائمًا أمامها وأمام من يجالسهم:

ـ البنت الصالحة تطيل العمر وتعوضك عن متاعب الدنيا وهمومها.

ويدعوا لها دعاء حقيقي تتحرك له بضع شعيرات بيضاء تبقت على رأسه المنحول بفعل الزمن والعمر.

... والآن يعاودها الشعور القاتل بغياب سعيد ، لم تكن تعلم أنه يشغل هذه المساحة الكبيرة في حياتها.. تسير كل يوم إلى عملها وهي تتلصص خلفها لعلها تجده يتتبعها فلا تجد إلا الفراغ حيث كانت تشعر بالأمان في وجوده وكأنه يقف حائلًا بينها وبين كل شيء يشعرها بالخوف.. واكتشفت أنها عاشقة ، تتحامل على قلبها وتكابر رفضًا لطيش حبيبها وعندما تخلى عن طيشه فتحت الباب لقلبها السجين فسيطر على جسدها صار العشق احتلالًا وعلى عقلها فأصبح الحب جنونا.

يقول الباريسي فرانسوا ماري أوتيه "1694 ـ 1778" المعروف باسم فولتير:

ـ "أسعد حياة ممكن أن تعيشها.. هو أن تعيش مشغولاً في عزلتك".

حاولت منيرة أن تشغل هذا الحيز من الفراغ بالمزيد من العمل والجلوس مع والدها وأخيها محمود وصديقتها فاطمة أخت سعيد

دون جدوى.. حتى شعر كل من حولها بشرودها وغيابها بينهم.. ولم يشغل عزلتها إلا سعيد ولم تكن تجيد الرسم مع ذلك تفننت في رسم وجه حبيبها كأنها رسامة محترفة تركت وجهه في كتاب الحب الذي تركه يومًا على سريرها.. تزوره كل ليلة وتسأله:

ـ أكل هذا من أجلى؟

ـ ماذا أعجبك في منيرة حتى تسعى للمستحيل؟

ـ متى تعود لتسرق مني نظرة ماكرة أفتقدها الأن؟

ـ نسيت أن أقبلك قبل أن تذهب فهل من فرصة أخرى؟

كلماتك القوية كرصاصة.. ابتسامتك الدافئة كشمس الشتاء.. وخوفك على مصير نسمة هواء تحمل أنفاسي.. خجلك أمام كلمة عتاب ونظرة لوم... كم أفتقدك .. متى تعود؟

تترك دمعة دافئة بين سطور الكتاب قبل أن تطوي صفحاته وتنام على ذكريات حبيبها الغائب وتتغطى بكلماته لعلها تقابله في أحلامها.

***

كان يوسف شيكوريل هو الابن الثاني لمورينيو شيكوريل بعد سلامون وقبل سالفاتور وكان رجل اقتصاد وهو من مؤسسي بنك مصر عام 1920م، ولم يكن من الصعب عليه توفير جزء من وقته لإدارة محالات شيكوريل مع شقيقه الأصغر سالفاتور رجل الاقتصاد وعضو مجلس إدارة الغرفة التجارية المصرية قبل أن يصبح رئيسها ، سافر على رأس بعثة اقتصادية مصرية إلى السودان من أجل إيجاد مجالات تجارية جديدة أمام رؤوس الأموال المصرية..

بكل هذه الخبرة والنجاح الاقتصادي نجح الأخوان معًا في

تطوير محالات شيكوريل وانشاء فروع لها في أغلب محافظات مصر.. لم يتوقف سلفاتور شيكوريل عند النشاط الاقتصادي فقط بل كان له أيضًا نشاط اجتماعي وسياسي ورياضي، حيث تزعم الطائفة اليهودية في مصر بعد أن كانت حكرًا على عائلة قطاوي، في تلك الفترة إزدادت هجرة اليهود إلى أرض فلسطين وكانت أول مستعمرة أُنشأت على أرض فلسطين في عام 1927م على يد اليهودي البريطاني "موشي مونتفيوري" وكانت فلسطين في تلك الفترة تحت الحكم المصري وحصل "مونتفيوري" على ضمانات بالحماية من الدولة العثمانية، كان عدد اليهود في فلسطين في نفس العام حوالي 1500 شخص وبحلول عام 1948م وصل عدد اليهود بفلسطين 150000 شخص حيث مثلوا 16% من سكان فلسطين الذي تجاوز المليون نسمة آنذاك.

- سعى المستوطنون اليهود في تلك الفترة لشراء الأرض الفلسطينية مستخدمين أساليب ملتوية عن طريق الاحتلال الإنجليزي حيث كان البنك البريطاني يمنح الفلاح الفلسطيني القروض بأسهل الطرق ووقت جني محصوله تلعب اليد الصهيونية في بخس محصوله فلا يجد ما يسدد به دينه فيقوم البنك بالحجز على أرضه، عندها تتدخل الأموال الصهيونية وتشتري من البنك.
- شكل المستوطنون مجتمع يهودي منفصل عن المجتمع العربي في فلسطين وشكلوا قوة اقتصادية خاصة بهم وتم إبعاد كل ما هو عربي عن نشاطهم الاقتصادي وقاموا بتأسيس الإتحاد العام للعمال اليهود في أرض فلسطين "الهستدروت" عام 1920م، وتم تدشينه في مؤتمر صحفي في ديسمبر من

نفس العام، لم يكن الهستدروت مجرد إتحاد عمالي بقدر ما كان مؤسسة خاصة للاقتصاد الإستيطاني ورفعت هذه المؤسسة شعار (أرض يهودية + عمل يهودي + منتج يهودي)، وسعت للفصل بين العمال اليهود والعمال العرب وكان "بن جورين" رئيس "الهستدروت" آنذاك، الذي أصبح أول رئيس وزراء لإسرائيل فيما بعد.. كان يسعى إلى تهويد العمال ومُنع كل صاحب عمل يهودي من تشغيل العرب.

***

جلست منيرة تنتظر عودة والدها وصبرها ينفذ كشمعة تأكلها النار شيئًا فشيئ.. لم تعتد على تأخره كل هذه المدة، فلن تهدأ حتى يأتي.

كان محمود بجانبها غير مبال ومشغول بقراءة عدد الشهر من مجلة الهلال التي أسسها المؤرخ اللبناني "جورجي زيدان1861_1914م" وصدر العدد الأول منها عام 1892م..

وقبل أن ينفذ صبر منيرة سمعت طبطبة أقدام والدها على سلالم البيت وقبل أن يطرق الباب فُتح أمامه، وتساؤلات منيرة عن أسباب غيابه تقابله فأشار لها ليطمئنها ودخل البيت وهو يقول:

ـ معلش يا بنتي اللي بيحصل في قصر شيكوريل الأيام دي مش طبيعي.

ـ ليه إيه اللي حصل؟

ـ من اليوم اللي اتقتل فيه الخواجة سلامون والست زوجته وبناته وكل الخدم بيشوفوا شبحه بيتحرك في القصر كل ليلة وده مسبب ليهم رعب.

ـ معقولة!؟

ـ هو ده كلام كل اللي بيبات في القصر يا منيرة مش معقول الكل..

قاطعه محمود بعد أن ألقى المجلة من يده:

ـ شبح إيه يا بابا إنت مصدق الكلام ده؟

ابتسمت منيرة ابتسامة فخر بمحمود ثم قالت:

ـ اللي في سنك بيسمعوا كلمة شبح مش بيعرفوا يناموا.

ضحك محمود وحمل مجلته من جديد وقام قاصدًا غرفته وهو يقول:

ـ بالعكس كلام بابا عن شبح الخواجة فكرني بعالم الأحلام.. تصبحوا على خير.

وذهب محمود تاركًا والده منهكًا وحيدًا بعد أن ذهبت منيرة لتحضر له وجبة العشاء.

وكان شبح سلامون شيكوريل لا يهدئ عندما يحل المساء.. يثور رفضًا للغياب.. يتعمد أن يشعر به الجميع وكأنه يصرخ:

ـ أنا هنا.

ـ أنا رب القصر وسيده..

ثم يبكي أمام فزع أولاده وزوجته ويذهب بعيدًا عنهم.. يقصد مكتبه ويجلس قرب مكتبته.. يطالع الكتب التي قد جلبها من باريس ولندن ولم يمنحه القدر فرصة لقراءتها.. كانت تشغله تجارته.. كانت تشغله حتى عن أسرته.. ودائمًا يموت اليهودي بجانب خزنة نقوده ولو كان جسده على سريره.. يفتح شبح سلامون صفحات كتبه فلا يجد بها كلمات.. يُجن جنونه ويخرج

ويقصد البيانو العتيق الذي جلبه شيكوريل الأب من إيطاليا وكلمة "بيانو" في الأصل إيطالية ويقابلها في العربية كلمة " رقيق أو لين".. يعزف على أوتاره المعدنية فلا يجد صدى ويدرك أن وجوده كالعدم.. عندها يهرب لسطح القصر الكبير.. يطالع النجوم في السماء ويقصد ألمعها ويحدثها ويشكوا لها عن مآسيه ويبكي بلا دموع ويصرخ بلا ضجيج وينتهي فجأة ويصير عدمًا.

(10)

توهتنا الدنيا مرة.. مرتين،

بس عمر في يوم ما ننسى توهنا فين.

مر شـهور على تواجد سـعيد في الحارة الكئيبة والمنهوبة بعد مقتل ابنها وحاميها.. وكان سعيد مشغول بمحاولة معرفة المكان الـذي طعـن فيه قتيله الأول، ويفشـل في كل مـرة، ثم يحاول من جديد دون يأس لشـعوره الدائم أن هناك شيء ناقص يفقد الصورة كمالها.. كان يتذكر تفاصيل جريمته لدرجة أنه تعرف على وجه رجل لاحقه بعد أن أسقط علي قتيلا، وهذا الرجل فشل في اللحاق بـه فقـد تخفي في زي رجل صعيدي كأنه قـادم من الجنوب ليثأر لمقتـل أحد أفراد أسـرته.. يتذكر كل شـيء ويتـوه عن المكان الذي ارتوى بدماء علي.

فـي عصـر يوم مـن أيامـه الأولى في الحـارة اقترح على السـت إنصـاف أن تؤجـر له المحـل المغلق الـذي يجاور محلهـا ولم تجد السـت سـبب لترفض طلبه خاصة بعد أن أظهر احترام وأدب شهد بـه الجميـع وكـون صداقات عديـدة وأصبـح جليس دائم للسـت إنصـاف، كانـت تـراه فتحية بنتهـا تتوارى عـن نظره وتتحاشـاه ولكنها مع الوقت أُجبرت على الاحتكاك به والتعامل معه.

أجـر سـعيد المحل وقد أوشـكت النقود التي معـه على النفاذ والغريب أنه لم يجد رد لسؤال الست إنصاف عن طبيعة تجارته،

اقترحت عليه أن يجلب الخضار والفاكهة من ضواحي القاهرة كما كان يعمل في بولاق أبو العلا كما أخبرها.. اقتنع باقتراح الست إنصاف ولم يجد في تنفيذه أي صعوبة حيث كان يجلب بضاعته مع كل صباح ومع الوقت أصبحت تأتي عن طريق متعهد تعرف عليه ذات يوم في إحدى المزارع.

بعد أن فتح سعيد مشروعه الصغير بأسبوع وبينما هو منشغل بتنظيف الخضروات وعرضها للزبائن في أفضل صورة لاحظ أن هناك حركة غير طبيعية في الحارة والقلق قد خيم على الوجوه وإذا بأربعة رجال يحملون الشوم بأيدي غليظة كملامحهم التي رسمت على أجساد عملاقة وقد دخلوا الحارة بهامات منتصبة توزع الخوف والقلق على الجميع فأدرك من هم.. استعد لهم وجذب كرسي وجلس أمام المحل في الوقت الذي كان يدفع كل صاحب محل للرجال الأربعة بالإكراه إلى أن وصلوا إليه وقد بدا عليه عدم الانشغال بما يدور حوله.

صاح أحدهم بسعيد:

ـ أنت قاعد على النيل يا أخينا فذ قوم كلم المعلم.

نظر سعيد إليه ولم يتحرك فأسرع الرجل نحوه وهو يسب ويلعن أبا سعيد وأمه وقد انتبه كل من في الحارة لما يحدث.. وبينما الرجل على بعد خطوات منه قام سعيد من على كرسيه الخشبي وقد تمكن من الكرسي جيدًا وأطاح به في الهواء فصدم الرجل في رأسه بقوة فسقط على الأرض والدماء تسيل من رأسه على عينيه عندها اقترب منه وركله ركلة قوية أصابت أنفه وغيبته عن الدنيا.. وحمل سعيد الكرسي من جديد وأعاده حيث كان وجلس من جديد بلا أي مبالاة أو قلق من الثلاث رجال الذين وقفوا

يشاهدون سعيد وهو يجهز على رابعهم في أقل من دقيقة ثم تحرك أحدهم وعرف سعيد من نظرة الجميع له أنه كبيرهم إلى أن وقف أمام سعيد وانحنى حتى أصبح في نفس مستوى نظره وقال وهو يحاول أن يجذب انتباه سعيد له:

ـ ليك أهل تودعهم قبل ما تموت؟

اصطف أهل الحارة وقد رسموا نصف دائرة حول سعيد والثلاث فتوات ورابعهم الملقى على الأرض يتطلعون له وهو يقف في وجه الذين نهبوهم وأذلوهم.

قال بهدوء للرجل بعد أن توعده بالموت:

ـ مش هموت النهار ده.. حاول اللي أقوى منك وفشلوا.. صارعت رجال أشداء وانتصرت وكان يخدم عليهم رجال أقوى منك وكانوا على حق وكنت أنا على باطل واليوم معي الحق وأنت الباطل.

جن جنون الفتوة وصرخ:

ـ أنت ميت.. أنت وكل من يقف خلفك (ونظر لأهل الحارة الواقفون ولوح لهم بنبوته يتوعدهم).

وقف سعيد من جديد وتحرك خطوتين فقط نحو أهل الحارة وأعطى ظهره لهم وواجه الفتوة:

ـ أنا وحدي ولو كنت تعرف مين أنا لعرفت إنني أكفي.

ضحك الفتوة ضحكة سمعها كل من في الحارة ونظر لزملائه من خلفه فضحكوا معه مرغمين وداخلهم رهبة من شاب شجاع لا يبدو على جسده الفتونة ورغم ذلك قضى على أحدهم والآن يقف في وجه كبيرهم.

قال الفتوة:

ـ مين إنت عشان أعرف إن كنت تكفي ولا لاء؟

ـ هتعرف مين أنا فى لحظة موتك.

والتقط سعيد نبوت أول ضحاياه الغارق في دمائه وهتف في أهل الحارة اليوم يعود علي من موته ليرد الظلم عنكم.

قاطعته فتحية وقد خرجت من بين الصفوف:

ـ مش هتقتلهم إلا بنبوت علي يا سعيد.

ودخلت الدكانة وأحضرت نبوت أخيها فالتقطه سعيد وسط هتافات أناس عاشوا حياة القوة والعزة في حياة علي وذاقوا عار الضعف والذل بعد موته.

تأمل سعيد النبوت المعتدل وتأهب للفتوة الذي بادره بضربة عصبية استقبلها سعيد بنبوت قتيله، ولم يهتز جسده ولم تتحرك أقدامه على الأرض ثم أعلن للفتوة عن نفسه بضربة قوية كان لها بالغ الأثر على الفتوة عرف طبيعة من يبارز فهوى على سعيد بضربات متلاحقة صدها سعيد برشاقة ومهارة، وعندما أدرك التعب على جسد الفتوة أخذ هو دوره في الهجوم بضربات ذكية أصابت أقدام الرجل الغليظ، وأصابت جانبيه ثم انتظر الفرصة ليصيب رأسه وبينما الفتوة يعاني أثار ضربة أصابت كتفه كان سعيد قد وجه أخري قوية لرأسه فسقط الرجل كسقوط جبل وتلى سقوطه لحظة صمت ثم عاصفة من أهالي الحارة مهللين ومكبرين وحملوا سعيد على الأعناق بعد أن أكملوا ما بدأه وانهالوا على الفتوات الأربعة بضربات كلها غل وجروا أجسادهم على الأرض وألقوا بها خارج الحارة ولم تنام الحارة ليلتها ووزعت أم علي الشربات وهي تُجلس سعيد بجانبها فخورة به وزينته فتحية

بوضعهـا عقد من الفُل حول رقبته وكان يقف بجوار فتحية شـاب عرفه سعيد.. إنه الشاب الذي جردها من ملابسها على السلم.

سادت أجواء الاحتفال الحارة لفترة طويلة وأصبح سعيد مخلص الحـارة وحاميهـا رمـز لكل شـبابها وحلم لـكل فتياتهـا وربحت تجارته وازدهرت الحارة.

عندما يجلس على المقهى البسيط لا يبحث كثيرًا عن كرسي سـليم بـل يجلس دون قلـق بعد أن قـام صاحبها بتجديدهـا وتغيير أثاثهـا وقامـت أم علي بتنكيس البيت وإنارة سـلمه بشـكل دائم ولم تعد فتحية وعاشـقها بحاجة إلى ظلام بعد اليوم الذي صادفها سعيد صاعدة إلى سطح البيت ومعها الغسيل لتنشره فصعد خلفها وتفاجأت به فعلمت أن الوقت جاء ليسـألها عما شاهده على السلم في أول أيامه في البيت.

ابتسم لها وسألها عن أحوالها ، ردت وهي منشغلة بحبل الغسيل:

ـ الحمـد لله بخير وكل أهل الحارة بخير والفضل يرجع ليك يا سعيد.

وكانت فتحية تصغر سـعيد بثلاث أعوام، ملامحها بسـيطة، لم تكن فاتنة بقدر ما كان جسـدها.. كانت تملك جسـد يرسم خطـوط الدنيـا ويصلهـا ، علـى خصرهـا اجتمعت شـعوب، وعلى أردافها تجمعت أحلامهم، وفى نفور صدرها نهضة أمم.

رد سعيد ولم تغيب ابتسامته:

ـ الفضل ليكم يا فتحية سـكنت بيوتكم ولم أشـعر بالغربة بينكم وحسيت من أول يوم أن أنا عايش بين أهلي.

فردت عباية سوداء على الحبل وشبكتها به ثم تركت غسيلها

واقتربت من سعيد وهي تقول:

ـ أنت تستحق يا سعيد وأهل الحارة غلابة وكانوا في انتظارك بعد موت علي لتخلصهم من ظلم الفتوات.

جلس سعيد على كرسي أكلت الشمس منه ما أكلت وتركته بقايا كرسي يتيم على السطح المتصل بسطح آخر عن طريق سبيكة حديد عريضة يستطيع الإنسان أن يتنقل بين البيتين عن طريقها، وسأل فتحية وهو ينظر للسبيكة:

ـ إيه ده؟

رأت المكر في عينيه فابتسمت:

ـ ثبتها السيد.

ـ اسمه السيد؟

ـ أه.. دخل الحارة في يوم من الأيام بطوله زيك وتعرفت عليه بالصدفة ومن أول نظرة اتعلقنا ببعض وعوضني عن غياب الراجل في حياتي واللي أنت شوفته بعينك على السلم ده أضعف حاجة بتربطنا.. اللي بيني وبين السيد أكبر بكتير وأنا كان نفسي يجي اليوم اللي أحكيلك فيه.

ـ وليه علاقتكم في السر؟

ـ السيد حظه وحش وكل ما يدخل مصلحه ونحوش قرشين يضيعوا آخر مرة وقف جنبي وأمي مريضة وصرف كل اللي معاه عليها.. إحنا نفسنا يجمعنا بيت واحد.. ورغم كل اللي بينا ده مفيش حد في الحارة كلها يعرف إن في علاقة بينا.. صعيدي وبيخاف علي من كلام الناس.. بيخاف عليا أكتر ما بخاف على نفسي.

ثم ضحكت وأردفت:

ـ مش بعيد لو شافك معايا دلوقتي يعمل فيك زي ما عملت في الفتوات.

ـ الصعيدي بيعرف يحب يا فتحية؟

نظرت للسبيكة التي يمر من عليها السيد في لهفة دئمًا وقد أحمر خدها من الخجل وقالت:

ـ الصعيدي علمني الحب.

بعدها عرض سعيد على السيد العمل معه في محل الخضار ووجد فيه أفضل من يحمي الحارة بعده وأكمل سعيد في الحارة ثلاث سنوات علم أهلها أن لا ينتظروا علي أو سعيد ليدفعوا الظلم عنهم وصنع من الحارة الضعيفة المنهوبة حارة قوية وبينما كانت الحارة سعيدة ومنشغلة بفرح السيد وفتحية كان سعيد يستعد للرحيل وكانت وثيقة زواج السيد وفتحية من أول عشر وثائق زواج مكتوبة في مصر فقبل عام 1931م لم يكن الزواج يكتب بعد.

عند نهاية الفرح وقف سعيد عند مدخل بيت يقابل بيت أم علي، بيت صغير وبجانبه امرأة اقترب عمرها من الثلاثين وبيدها طفل بلغ عامه السادسة وهتف بصوت لفت انتباه الجموع:

ـ من خمس سنين قابلت علي وهو خارج من البيت ده (وأشار للبيت الذي يقف على مدخله) كنت شيطان أقتل مقابل المال وكان علي أول من قتلت.. قتلته بخوف وغدر.. طعنته من الخلف وسقط وهو أقوي مني وهربت بضعفي.. وقتلت من بعده ثلاثة ومن بعدهم قتلت طيشي وجنوني فتاة عشقتها وطهرتني.. ولن تقبلني إلا بعد أن يسامحني كل من اكتوى بنار طيشي وجنوني واليوم بعد 3 سنين بينكم.. منعت الفتوات عنكم

وصنعت بينكم أكثر من علي والحمد لله تزوجت فتحية وجاء اليوم ليعلم الجميع أن علي لسه موجود بينا (وحمل الطفل ليراه الجميع) لأن اللي خلف مماتش.. لحظة موت علي لم ينظر في وجه قاتله.. كان مهموم بمصير ولده وزوجته (وأشار للمرأة التي بجانبه).. اتجوزها في السر خوفًا من مصير مكتوب يلاحقه.. ضحت بالأهل والمال والجاه من أجله وضحى بعمره من أجلها.. من يراني قاتل فليقتص مني الليلة.

سار سعيد وسط الجموع في طريق الخروج من الحارة حاملاً حقيبة ملابسه الزرقاء التي جاء بها قبل ثلاث سنوات، صنع الناس بأجسادهم ممر، سجلت عيون النساء والفتيات في الشبابيك والبلكونات ما لم تسجله كاميرات فيديو هذا الزمان.. وقف الرجال يودعون البطل.. والنساء يودعن العاشق.. وأم علي تبكي فرحًا بحفيدها.. وخرج سعيد تاركًا خلفه حكاية لن تنساها الحارة.

(11)

فـي ليالـي الحـرب أحتمي مـن طائرات العدو تحت قميصك السماوي..

وفـي حالـة الحصـار أردد كلماتـك فيسقط الحصار وأنتصر.

متكئًا على جدار ساقط ومتمسكًا بحياة مستعارة.. كان شبح سلامون لا يغيب، أصبح جزءًا من القصر الكبير.. شبح حزين ناقم ومهموم.. يشـكل وجهه في أشـكال مخيفة ومرعبة ويلون جسـده أحيانًا بالسواد وأحيانًا أخرى يزوم.. يئن.. يبكي.. يسمع أهل القصر صوت نحيبه.. يومًا رأى عامل تعمد التواجد بالقرب منه كان يراقبه بنظرات جريئة فأيقن أنه لا يخيف، كانت أسـرته الصغيرة تحتمي بالعمال منه، تأمل العيون كانت معظمها مصرية فتساءل:

ـ أليست تلك العيون التي كانت تقلقنى في حياتى؟

ـ أصبحت أسـتأنس بها الآن فهـي عيون لا تخون.. عيون تحمي وتصون.

وعاد للقصر هدوءه المعهود ولم ينشغل أحد بأمر شبح سلامون بقدر ما انشغل سالم الجنايني..

الحقيقـة أنـه كان مختـار مـن الشـبح وكان يتجسـد لـه في ظـلام الليل وكثيـرًا ما تجاهله.. إلى أن كانت ليلة مظلمة، كان الرجل في طريق الخروج من سـور القصر وجد شبح سلامون يقف

فـي طريقه حاول الهرب فلم يسـتطع.. فقال وهو يسـتعيذ بالله من الشيطان بعد أن ردد بعض الآيات القرآنية:

ـ أنت عايز مني إيه؟

تحدث الشبح بصوت مخيف وحزين:

ـ لا تخف.

رد في خوف:

ـ أنت ميت.

اقترب الشبح:

ـ لسه موجود لكن في القصر فقط.

ابتعد سالم:

ـ أنا عايز أروح لولادي.

اقترب الشبح أكثر:

ـ منيرة؟

عـاد الرجـل بظهره في خطوات عصبية إلي أن سـقط على الأرض ولم يشعر بنفسه إلا وهو في حضن منيرة وعيون محمود تراقب شروده في قلق.

دار عقـرب الدقائق دورة كاملة وشـكلت ظنـون منيرة عقرب الثوانـي حتـى تصدعت رأسـها ومحمـود محتفظ بثباتـه يحاول أن يستوعب ما يحدث لوالده إلى أن هدأ الرجل ونطق:

ـ الشبح.

منيرة:

ـ شبح !؟

ـ شبح الخواجة.

محمود:

ـ معقول يا بابا.

ـ شوفته واتكلم معايا واتكلمت معاه.

لم تنطق منيرة، صمت محمود وأردف والدهم:

ـ كلمني وهو بيبكي وكان بيقرب ويقولي ماتخافش.

منيرة:

ـ وقالك إيه كمان؟

ـ قالي إن هو لسه موجود لكن في القصر بس.

محمود:

ـ وبعدين؟

ـ قالي ماتخافش وحاول يقرب مني أكتر، ولما قولتله عايز أروح لولادي قالي تقصد "منيرة".

شعور اختلط بالرهبة والتعجب انتاب منيرة ولم تجد ما تقوله فتحدث محمود:

ـ طيب وأنا يا بابا.

ـ هو كان يعرفك يا محمود.

نظرت منيرة إلى والدها وهي تبحث عن كلمات لتطمئنه:

ـ الخواجة مات يا بابا وإن كان ليه شبح هيجي يوم ويموت هو كمان.

هتف الرجل:

ـ القصر.

ثم أردف:

ـ مش هيموت الشبح.. هيفضل في القصر.

قال محمود وقد اطمأن على والده:

ـ شبح.. لو كان فعلاً موجود فالويل كل الويل لشبح حزين لا يخيف مرتبط بقصر ساقط لا محالة.

ثم تعجب:

ـ ما قيمة الشبح إذا لم يخف الإنسان؟

تساءل محمود:

ـ يخرج الإنسان إلى الدنيا دون أن يخير بين الحياة وبين العدم فهل يخير الشبح؟

نهض الرجل تاركًا ابنه في فلسفته وضحكت منيرة لرد فعل أبيها وعمق تساؤلات أخيها، في المساء قبل نومها تملكها شعور بقرب سعيد منها، قصدت شباك غرفتها الذي يطل من بعيد على بيت سعيد، ليلة هادئة مقمرة، كان ضوء القمر يسقط على بيوت الحارة كاشفًا أسرارها المرسومة على الشبابيك.. فحدثت نفسها:

ـ شبح الخواجة يذكرني بك وأنا لم أنساك.

ـ هل لقتلاك أشباح يا سعيد؟

ـ متى تعود؟

ما أن أغلقت شباكها.. حتى فُتح الشباك المقابل الذي كانت تقصده.. قد عاد متحررًا بعض الشيء من وعده بعد أن تخلص من ذنب أول قتلاه.. وجد والدته في انتظاره قد تحملت غيابه برضا وطيب خاطر، وعزاؤها الوحيد هو ابتعاده عن أصدقاء السوء، قابلته فاطمة بشجن ودموع حملت العتاب على الغياب والفرحة

بالعودة، أكملت عامها الرابع والعشرين وأصبحت فتاة مكتملة يقصدها راغبي الزواج، انجذبت لشاب يشبه سعيد.. هكذا فسرت لنفسها سبب انجذابها له، وقد وقع في حبها، وعندما أراد الارتباط بها والتقدم للزواج طلبت منه الانتظار حتى يعود أخوها.

يومً شاق مر على منيرة في محل شيكوريل بسبب كثرة الزبائن لقرب الحفل السنوي الذي يقام في 15 مارس من كل عام ذكرى تولي الملك فؤاد الأول عرش مصر.. أنهت عملها مرهقة ومجهدة وفي طريق عودتها للبيت شعرت بسعيد يسير خلفها.. تصاعدت أنفاسها وتوقفت.. لم تنظر خلفها فلطالما التفتت ولم تجده.. وقبل أن تتحرك من جديد سمعت صوت يهمس باسمها.. كان أنيقًا يرتدي بدلة سوداء ومصففًا شعره بعناية.

هتفت:

ـ سعيد.

إقترب:

ـ منيرة.

تعجبت من السحر الكامن في ملامحه وابتسمت لنظراته الماكرة وسارت فسار خلفها عبر شارع سليمان باشا "طلعت حرب" حتى دخلا الميدان الكبير.

*****

كان سلفاتور شيكوريل قائد منتخب مصر في المبارزة وممثل منتخبها الوطني في دورة الألعاب الأولمبية عام 1928م.. اعتاد ممارسة التمارين الرياضية في أشهر وأقدم النوادي المصرية (نادي الجزيرة) وأنشيء نادي الجزيرة بجزيرة الزمالك عام 1882م

وأطلـق عليه نادي الخديوي، وأطلق عليه أيضًـا نادي أبناء الذوات ونظم النادي أول سباق خيل في نفس عام افتتاحه.

بعدهـا عرفت مصر رياضة سـباق الخيل ومثـل النادي الكبير المقام على مسـاحة 146فدان رمزًا لرياضة سباق الخيل على غرار الأندية الإنجليزية.

وبينمـا كان سـلفاتور يسـتريح من عنـاء التمارين تاركًا جسـده للهـواء يخلصه من الإرهاق والتعب وقد رقد تحت شمسـية تحميه من أشعة الشمس بعد أن بدل ملابس التمارين وارتدى ملابس رياضية من أفخم الماركات العالمية.. اقترب منه رجل خمسيني بملامح أوروبية:

ـ بون جور سلفادور بك.

اعتـدل سـلفادور في ضيق ونظـر للرجـل دون أن ينبس بكلمه فأكمل الرجل:

ـ أنا مسـيو ميشـيل من منظمة بيتار جئت إلـى القاهرة منذ ما يقرب من شهر لأتواصل مع أبناء الوطن المنشود، وقد قابلت الكثيـر منهـم، وكان لابـد أن أقابل أبناء الراحـل مورينيو شيكوريل إلي أن جاءت الفرصة.

قال سلفادور باقتضاب:

ـ أنت تعرف والدي؟

ـ لم أتشـرف بمعرفته شخصيًا ولكننا نعرف جميع اليهود في الشتات ونتواصل معهم في كل الدول.

ـ من أنتم؟

ـ منظمة بيتار.

ثم أردف الرجل..

أُنشئت بيتار في عام 1923م أي قبل ثمان سنوات من الأن وأسسها الأخ زئيف جابونسكي تخليدًا لذكرى الراحل العظيم ترومبلدور الذي ضحى من أجل اليهود ، ومن أجل وطن على أرض الميعاد...

الآن وصل عدد أعضاء بيتار إلى ما يقرب من 20 ألف عضو وبدأنا من "ريفا" عاصمة "لاتفيا" وتم انشاء فروع أخرى للمنظمة في أوروبا وأمريكا وفي فلسطين، ونعمل الآن من أجل جمع المال من التجار ورجال الأعمال اليهود لنتمكن من تنشئة الشباب اليهودي على حب الوطن، ومن أجل تعبيد الطرق لجمع أبنائنا في أرض الوطن المنشود ، ونهتم بنشر تاريخنا وحضارتنا وثقافتنا وندعو لتعميم اللغة العبرية ونشيدنا الوطني الموحد.

قال سلفاتور:

ـ وماذا عن العمليات العسكرية والإرهابية والإجرامية التي تتم في أرض فلسطين؟

بخبث ابتسم الرجل:

ـ واضح أن حضرتك سلفاتور بك متابع كل ما يجري ولك أن تعلم أننا نهتم بالتنشئة العسكرية وننفذ ونخطط لبعض العمليات العسكرية لنزيل العقبات التي تحول بيننا وبين حلم الوطن.

فاجئ سلفاتور الرجل بسؤال أربكه:

ـ ماهي علاقتكم بالهستدروت؟

كانت الشمس تسقط على وجه الرجل ولم يتأثر بها ولم تشغله بقدر ما شغلته أسئلة سلفادور المباغتة ، سقط ماء وجهه

لسخونتها ، كان هناك خلاف حاد بين المنظمتين يعلمه سلفادور.

ثم رد على السؤال الأخير بابتسامه مصطنعة:

ـ الهستدروت لها دورها ونحن أيضًا لنا دور نؤديه ، هناك بعض الخلافات حتمًا ستزول.

قال سلفاتور بعد أن دار بوجهه عن الرجل:

ـ تركنا أبي ثلاثة إخوة ومات الكبير على يد يهود كان قد منحهم أخي الثقة وأسكنهم قصره.. أنا لا أثق في هذه المنظمات ولا في أعضائها الذين ينتظرون الفلسطيني بغدر عند مدخل الدنيا ويتركونه على باب الأخرة.. أنا لا أعرف وطن غير مصر ولن أتركها.

بحدة قال ميشيل:

ـ هذا ليس وطنك سلفاتور بك وسيأتي يوم قريب ستدرك ذلك.

ـ وهل فلسطين وطني؟

ـ نعم.. أقرأ كتاب موسى المقدس.. إنها أرض قد منحها الله لنا وقد اغتصبها العرب منذ قرون.

ـ وأين وطن العرب؟

ـ يبدو أن الرياضة التي تمارسها تحت علم مصر شغلتك عن هموم أبناء وطنك.

قال سلفاتور معلنا انتهاء المقابلة:

ـ لا تضيع وقتك يا رجل فلن أمنحك المال ولن أنضم لكم.

انصرف الرجل دون أن ينطق، وعاد سلفاتور لسلامه الداخلي تحت الشمسية الملونة.

(12)

ضوء القمر

فـي الميـدان الكبير كان مشـهد الربيع مكتملًا.. الشـمس ترحل بعد يوم طويل.. كانت حانية لامعة كالذهب.. يزداد لمعانها وهي توزع أشـعتها على المباني المسـتوردة التي تحاصر الميدان.. الذي يمر منه أجانب أكثر من أولاد البلد تحت حراسة أربعة أسود ليـس لهم علاقة من قريب أو مـن بعيد بمصر والمصرين ولو كان وضـع مكانهما أي شـيء آخـر يدلل أو يعبر عـن حضارة أصحاب الأرض لكان ذلك أفضل بكثير.

دخلـت منيرة الميدان ومن بعدها سـعيد قصـدا نفس المكان الذي قد جلسا فيه قبل ثلاث سنوات.. كان حضور سعيد في هذه المـرة في غاية الروعة والجمـال، ومنيرة مازالت محتفظة بروعتها وجمالها.

قبل ثلاث سـنوات كان سعيد يجلس ولا يجد ما يقول بل حاول الهـرب فـي البدايـة، منيرة هي من كسـرت حاجـز الصمت.. أما اليوم فقد اختلف الأمر فسعيد هو من بادر بالحديث بعد أن جلست تراقب كل شيء فيه بعيون أرهقها الحنين ومنع عنها النوم ليالي.

ـ وحشتني

ـ أخيرًا رجعت.

ـ مشوار طويل وصعب يا منيرة.

ـ مش أصعب من غيابك.. أنا قتيلك الخامس إمتى هيجي دوري؟

ـ الحب مش قاتل يا منيرة.

ـ عمرك ما نسيت كلمة سمعتها مني حتى لو كانت مش عجباك.. فاكر لما وصفتك بالطفل دا إنت كنت هتقتل عشانها.

ـ أنا طفلك اللي كبرتيه وعملتي منه بطل بيتحاكى الناس بحكايته.

كانت تفقد الكلمات وهي تتأمل ملامحه.. تعتلي اصطفاف شعره وترقص أفكارها بحرية.. تحررت من قيودها وجذبته من ذراعه وعانقت أنامله بأناملها الناعمة وحملت كفه لتقبله فشعر بكفه يشتعل أمام حرارة أنفاسها فحاول جذب كفه برفق ولكنها كانت أقوى منه.. غاب عن الوعي لحظات ثم عاد للدنيا عندما سمع صوتها.

ـ نفسي أرقص معاك.

ابتسم:

ـ وأنا نفسي أحكيلك وتحكيلي.

ـ إحكي يا سعيد.

ـ 3 سنين بعيد عنك ولما كنت بضعف كنت بفتكر وعدي ليكي.. كنت برجع أقوى من الأول.

(وحكى لها عن حارة الطالبية وعن علي وأم علي وفتحيه والسيد)

ـ وأنا في غيابك صنعتلك حضور مختلف.. كنت حاضر ديمًا.

(وحكت له عن شيكوريل وعن سلفاتور ويوسف وعن شبح سلامون وعن كتاب الحب والصورة التي رسمتها له).

غابت الشمس وأطل القمر من بعيد ، عندها ودع سعيد منيرة.. وتركا الميدان من جديد وقضى سعيد أكثر من شهر مع منيرة وسط أهله.. تزوجت فاطمة وجهزها سعيد بأموال أقسم لأمه أنه جمعها من العمل الحلال ، وسلم فاطمة في فستانها الأبيض لزوجها ، وحضرت منيرة الفرح وكانت ليلة لن تنساها ، فبينما كانت ترقص هي وكل الفتيات مع فاطمة بعيدًا عن أعين الرجال بغرفة فاطمة المغلقة.. فُتح الباب ولم يدخل أحد فهمت بإغلاقه فجذبها سعيد من الخارج دون أن تشعر أو يشعر بهما أحد فسارت خلفة حتى وجدت نفسها في غرفته فهمست في أذنه:

ـ يا لك من لص.

ابتسم ولم ينبس بكلمة ثم أغلق الباب وأخرج من أدراج مكتبه أسطوانة ثبتها بـ "الجرام فون" خرجت منها موسيقى رائعة "معزوفة ضوء القمر للموسيقار الأشهر "بيتهوفن".

إقترب منها وضمها دون أن ينطق ، رقصت الدنيا بهما ، وضوء القمر يتسلل من النافذة.. كانت ترتدي فستان سهرة رائع الألون.. وكان يرتدي بدلة تحاكي بدلة بيتهوفن الشهيرة.. كان يجمع الدنيا بين ذراعيه.. كانت ترى نجوم السماء قريبة كعينيه.. مال على كتفها فملأت رائحتها أنفه.. نامت على صدره فرسمت دقات قلبه على خدها قُبلات كل العاشقين.. كانت حرارة جسده تلتصق بنعومة جسدها دون خوف ، العزف يعلو معانقًا القمر وسعيد يلملم جزر الأرض الضائعة في البحار بكفه يشكل بها جنة على جسدها ، ومنيرة تلعب بالنجوم وترسم بها وجه حبيبها

والعزف يعلو ولا ينقطع...

تؤثر الموسيقى في 95% من البشر حيث تقوم باستثارة عقلية، وانفعالات قوية تتراوح بين الهزة الجسدية الشديدة إلى الشعور بالتوحد مع العالم وتتباطأ دقات القلب عند الاستماع إلى الموسيقى وتقل حركات العضلات وقد تصل إلى ما يشبه الثبات التام وتختلف استجابة المخ باختلاف نوع الموسيقى حيث يسبب العزف الماهر والسريع تغيرات جسدية ترتبط بالسعادة وتتمثل في زيادة معدل التنفس أما الموسيقى ذات الإيقاع البطيء تسبب بطء نبضات القلب وارتفاع ضغط الدم ودرجة الحرارة وهذا ناتج عن الحزن الذي يسببه ذلك النوع من الموسيقى.. وتعتبر الموسيقى ابتكارًا بشريًا فريدًا وهي من بين أكثر الأنشطة البشرية تعقيدًا إذ تتضمن الإدراك والذاكرة والتزامن والتصنيف والانتباه وتتضمن أيضًا في حالة العزف المهارة والتآزر المعقد للفعل الحركي.

ومعزوفة ضوء القمر تؤثر فينا لأننا نشعر في كل وقت نستمع إليها فيه بأن هناك شيئًا ما مختلفًا سواء كان ذلك بسبب العازف أو حالتنا المزاجية.

وهناك 5% من الناس لا تؤثر فيهم الموسيقى حيث يكون الشخص الذي لا يحس الموسيقى ولا يستطيع التمييز بين نوع ونوع آخر مصاب بصمم شبه كامل بالنسبة للنغمات والغريب أن الثوري الأشهر "جيفارا" كان يعاني من فقدان الإحساس بالموسيقى وكان يستعين برفاقه للتميز بين موسيقى التانجو الأرجنتينية السريعة والمفاجئة والسامبا البرازيلية الرقيقة.. ويأتي وجه الغرابة هنا حيث أن "جيفارا" ترك مجموعة من الصور هي الأكثر انتشارًا بين الشباب وكل الثوريين في أنحاء العالم وأشهر تلك الصور

صورة "لتشي" وهو يرتدي سماعة الموسيقى على أذنيه ويبدو في حالة توحد مع النغمات التي كست ملامحه بالرومانسية المختلطة بالشجن.

انتهى العزف ولكنها لن تكون الرقصة الأخيرة وانتهى فرح فاطمة، عاد سعيد إلى كُتب كريستي وقد وجدها كما تركها، أخرج منها ثاني قتلاه "عبدالله" ابن الحارة الفقيرة في حي الأزبكية وكانت قصته عجيبة.. تذكرها سعيد بألم وندم وأطال النظر في الصورة التي أُرفقت بتقرير صفحة الحوادث بجريدة المصور بالعدد الصادر في أحد أيام عام 1925م.

تعرف سعيد على عبد الله في الخمارة عندما التحق بعالم الجريمة كان شاب صغير لم يُكمل عامه السادس والعشرين، كان يحترف الجريمة.. يقتل دون تردد ومنه تعلم سعيد الشغب والسطو والنصب، ولكن سعيد تفوق على عبد الله وأخذ مكانه فصارا عدوين بعد أن كانا صديقين، أصبحت العلاقة بينهما تقوم على العناد والتراشق دائمًا.

ترك سعيد ورقة الجريدة التي بيده واستلقى بظهره على السرير ونظر لسقف غرفته وتذكر اليوم الذي قتل فيه عبد الله.

دخل الخمارة في هذا اليوم منتشي بعد أن أجهز على مجموعة من الأشقياء.. وجد ليلي في انتظاره باكية وقلقه تطلب منه الحماية وتترجاه أن يبعد عبد الله عنها فقال لها:

ـ اطمني يا ليلي متخافيش.

جلست ليلي بجانبه تتحسر على حالها وتصرخ:

ـ بيقولي لو قربتي لسعيد هقتلك وأقتله.

وعندهـا دخـل عبـد اللّه واقترب من سـعيد وليلى والشـر يملؤه وجلـس بينهما وقال بصوت اسـتفز سـعيد بعد أن أشـعل سـيجارة لاكي سترايك:

ـ إنتِ ملكي يا ليلي وإنت يا سعيد إبعد عنها وخلينا حبايب.

ـ إحنا مش حبايب وليلي مش ملك حد وإبعد إنت عنها وسيبها لحالها.

ـ كبرت يا سعيد وبقي ليك كلمة.

لم يرد سـعيد وانشـغل بالصخب الذي يحاوطه فوقف عبد اللّه وسط الخمارة يصرخ فتوقف الصخب:

ـ المكان ده ضاق علينا أنا وأنت يا سعيد والليلة يا أنا يا أنت.

وخـرج عبـد اللّه من الخمـارة وليلـى تبكي وجسـدها ينتفض وسـعيد لا يبالـي.. يحاول أن يطمئنها وهو يعلـم أن عبد اللّه ينتظره بالخـارج وبالفعـل وجـده في انتظاره في الشـارع وحاول سـعيد أن يتلاشاه، لكن عبد اللّه لم يترك له أي اختيار وأشتبكا وقد خرج كل مـن بالخمارة ليشـاهدوا بعد أن علموا بالاشـتباك ولم يحاول أحد أن يفصل بينهما فالكل يعلم أن الليلة هي الأخيرة لأحدهما.

كان عبد اللّه قوي ورشيق ولديه دافع الغيظ والانتقام من رفيق أخـذ مكانه وحال بينه وبين فتاة أحبها فهوى على سـعيد بعصبية وكان سعيد هادئ ومتزن فكان يتصدى للكمات عبد اللّه ويرد بأقوى منها، عندما شـعر عبد اللّه أنه لن يتمكن من سـعيد أخرج سـكين مـن تحت قميصـه وأصاب به سـعيد في كتفـه وأراد أن يصيبه في مقتل، لكن سـعيد كان أسـرع منه وغرس سـكينه الذي لا يفارقه في قلب عبد اللّه وقال له بوجه جامد:

ـ مش المـكان بس اللي ضاق علينا يا عبد الله.. الدنيا كلها ضاقت علينا.

قال عبد الله وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة:

ـ خلصـت ليلى مني يا صاحبي، ومـش هيبكي عليا غير أمي وهيفرح بموتي كل اللي يعرفني.

كانت الدماء تحاوط سـعيد، ظل يراقب أنفاس قتيله الأخيرة وحدث عبد الله متأسيًا بعد أن أقترب منه:

ـ مش هينفعك البكاء يا عبد الله اتشاهد يا صاحبي.

جاءت صرخات ليلى من بعيد وقالت:

ـ الليلـة بتمـوت يا عبد الله وبكـرا الدور عليك يا سـعيد وأنا مش حلاقي اللي يخلصني من الدنيا دي.

وأمسـكت سـكين عبد الله بعد أن سـقط من يـده وحاولت أن تطعن نفسها لتموت هي الأخرى ولكنها لم تتمكن من ذلك بعد أن منعها سـعيد بقوة، كانت كالثور الهائج أمام جثة عبد الله فلطمها سـعيد بكفه على وجههـا فانهارت وفقدت الوعي وسـقطت بجانب جثة عبد الله..

اسـتفاق سـعيد بصعوبـة مـن ذكرياتـه وكأنـه يتخلـص مـن كابـوس يحاول أن يقضي عليه، أزاح بكفه عن وجهه دموع الألم والنـدم وحمـل حقيبتـه الزرقـاء وبداخلها كتاب الحـب الذي بين صفحاتـه صورة عبـد الله بجانب صـورة علي وخرج مع السـاعات الأولـى من صباح يوم ممطر في عـام 1931م قاصدًا حارة عبد الله في حي الأزبكية.

(13)

أوريكو Oreco

ـ هل تتذكر ليلة مقتل سلامون؟

سؤال طرحه يوسف شيكوريل على سلفاتور شيكوريل وهما جالسان في صباح أحد الأيام بالقرب من النيل في نادي الجزيرة.

أجاب سلفاتور بحزن:

ـ نعم ليلة أن جمعنا في القصر داخل القاعة الكبيرة.

ـ هل تتذكر ما قال؟

ـ نعم.

استمر يوسف في طرح الأسئلة:

ـ وما هو رأيك في طرحه؟

ـ كل يوم جديد يثبت صحة كلام سلامون وأعتقد أن اليوم اقترب وستعود مصر للمصريين.

قال يوسف:

ـ يبدو أنك تعلم عن المصرين الكثير.

ابتسم سلفاتور وقال:

ـ وأنت أيضًا يا أخي تعلم الكثير.

نظر يوسف للنيل من بعيد وهو يقول:

ـ عندما تقرأ تاريخ مصر فأنت تقرأ عن أولى خطوات التاريخ.. بلد الحكايات والأساطير والعجائب، ولابد يا سلفاتور أن تكون مصر هي بلد الحياة والموت لعائلة شيكوريل كما عاش ومات والدنا وأخونا الكبير.. فما أصعب فكرة الرحيل عنها.

وضح الاهتمام على وجه سلفاتور وقال:

ـ حقًا بلد جميل لديه تاريخ ولكن ليس لديه حاضر.

قال يوسف:

ـ هل ترى النيل هذا؟

ـ نعم.

ـ هناك أسطورة تقول: إنه نزل من السماء على جناح أحد الملائكة وكان يحمل النيل على جناحه الأيسر ويحمل الفرات على جناحه الأيمن.

قال سلفاتور في تعجب:

ـ أين قرأت ذلك؟

ـ بل سمعت..

أنا أحب أن أستمع إلى المصريين فلديهم الكثير من الحكايات العجيبة ولك أن تعلم أنه كان عند المصرين قديمًا عيد يسمى عيد "الغطاس" وكانت ليلة هذا العيد لا ينام فيها المصريين، كانوا يجتمعون على شاطئ النيل الطويل حاملين المشاعل من جنوب مصر إلى شمالها وكانوا يغطسون في النيل اعتقادًا منهم أن ذلك يشفيهم من المرض ويحصنهم منه.

مرت آمامهم امرأة في عقدها الثالث تمتلئ بالأنوثة، ترتدي

ملابس رياضية مثيرة ويسير خلفها رجل أربعيني ذو بشرة سمراء وتسير خلفهم أعين جميع رواد النادي.. ينظرون إلى المرأة الفاتنة والطويلة كنخلة والمستقيمة والمنحوتة كمسلة فرعونية.. يسخرون من الرجل الذي يسير خلفها وقد بدا للجميع أنه زوجها.

دقق سلفاتور هو الآخر في المرأة وقال ليوسف:

ـ عجيب هو أمر المرأة المصرية!

ضحك يوسف وقال:

ـ عندما غرق من غرق من أهل مصر مع فرعون موسى ولم يبقى غير العبيد والأُجراء.. لم تتحمل النساء غياب الرجال فتزوجت المرأة عبدها وتزوجت الأخرى من أجيرها بعد أن اشترطن عليهم ألا يفعلوا أي شيء إلا بإذنهن، ومن هنا جاء أمر نساء مصر على رجالها، وأعتقد أن هذا الرجل ـ أشار للرجل الذي يسير خلف المرأة ـ حفيد أحد العبيد أو الأُجراء وهذه المرأة غرق رجلها مع الفرعون.

ضحك سلفاتور وسأله يوسف:

هل تعلم لماذا لون بشرة هذا الرجل سمراء؟

ـ أكيد من جنوب مصر.. من النوبة أو أسوان.

ـ وقد يكون أصله من الحبشة فبعد الغرق نكح العبيد السود النساء المصريات واختلطت الأنساب ولم تعد تستطيع أن تميز المصري من النوبي من الحبشي.

تأمل سلفاتور كلام يوسف وهو يراقب المرأة والرجل من بعيد ثم قال:

ـ إن هذا الرجل لا يملك الشخصية ليغير عليها فالرجل

المصري يا سلفاتور قليل الغيرة وأكبر دليل على ذلك قصة نبي الله يوسف مع زليخة زوجة عزيز مصر، حين راودته عن نفسه وحتى عندما شهد شاهد من أهلها عليها، مع ذلك لم يعاقبها العزيز زوجها، إنما قال لها استغفري ربك وتوبي إليه.

أومأ يوسف برأسه إيماءات سريعة مصدقًا على كلام سلفاتور وقال:

ـ نعم يا أخي فنحن يعمل لدينا في تجارتنا فتيات مصريات يمتلكن حضور وشخصية وقوة لن تجدها في كثير من الرجال المصريين.. هل تعرف منيرة التي تعمل لدينا؟

ـ نعم فهي فتاة تلفت انتباه الجميع وأنا أراها أجمل فتيات المحل.

ضحك يوسف وسأله:

ـ هل تعرف سالم الجنايني؟

ـ نعم أعرفه جيدًا.

ـ هو والد منيرة يا سلفاتور.

اندهش سلفاتور وضحك متعجبًا وقال وهو ينهض:

ـ ما أغرب وأعجب هذا البلد.

ـ إجلس يا سلفاتور فلم ننتهي بعد.

أخرج سلفاتور من بين ملابسه ساعة عتيقة كانت لوالده متصلة بسلسلة ذهبية ونظر فيها وجلس من جديد.

ثم أكمل يوسف:

ـ أُذكرك يا سلفاتور من جديد بكلمات سلامون.. كان يطالبنا بالاندماج أكثر مع طبقات الشعب المصري المختلفة ونحن نتعامل فقط مع الأثرياء وقد شغلني هذا الأمر كثيرًا

إلى أن وجدت السبيل لذلك.

ـ ما هو؟

ـ أوريكو Oreco

ـ ماذا!؟

ـ سلسلة محلات جديدة سنطلق عليها أوريكو تخدم جميع الطبقات وبالأخص الطبقات الفقيرة والبسيطة منها.

ـ فكرة رائعة يا أخي.

ـ هذه المحلات ستجعل اسم شيكوريل في كل بيت مصري بسيط وقد يأتي اليوم الذي يصبح فيه اسم مصري بامتياز وعندها لن ننشغل بأمر الأتراك والإنجليز.

ـ أعتقد أن هذاء ما كان يريده ويتمناه سلامون.. لابد أن أنصرف الأن يا أخي.

انصرف سلفاتور وظل يوسف يتنقل في النادي الكبير بعد أن أنصفوا نساء مصر على رجالها ، في المساء إلتقى يوسف بسلفاتور من جديد وحكى له عن الرجل الذي إلتقى به في نادي الجزيرة.. عضو منظمة بيتار فانزعج يوسف وقال في غضب:

ـ لن نترك المنظمات الصهيونية تعبث بعقول يهود مصر.

ـ فعلاً يا أخي ولكن ما العمل؟

ـ منذ متى وعائلة قطاوي تتزعم اليهود في مصر؟

ـ منذ زمن بعيد فزعامة الطائفة اليهودية لم تخرج من هذه العائلة وقت أن جاء إليشع قطاوي إلى مصر وتزعم من بعده يعقوب قطاوي.

ـ أعتقد أنه جاء الوقت لننهي وصاية تلك العائلة على يهود

مصر.

ـ لصالح من؟

ـ لصالحنا نحن.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أريد أن تنتقل الزعامة لأحدنا.

غاب سلفاتور لثواني يتدبر الأمر ثم قال:

هذا الأمر يحتاج إلى الكثير من التفكير.

ـ فكرت في الأمر كثيرًا.

ـ إذًا فلنسعي إلى ذلك.

ـ ولكن لابد أن ننشغل بأمر أوريكو أولاً.

ـ فلتترك لي أمر أوريكو ولتسعي أنت لزعامة الطائفة اليهودية، وأنا معك.

قال يوسف في تصميم:

ـ اتفقنا يا أخي.

(14)

عزيزة

هـواء نجس.. وأنت تسـير في حـي الواسـعة بالأزبكية.. تكاد تستمع لصوت ارتطام الأجساد العارية ببعضها نتيجة الجماع القوي والعنيف حيث يدفع له الرجال ليحيا به أهل الحي البائس.

قوادوا بيوت الرزيلة مصطفون على رأس الحي يستقبلون الزبائن ويعرضـون عليهـم صور فتياتهم.. بدا لهم سـعيد مـن الوهلة الأولى زبـون يبحث عن المتعة فـي حضن فتاة لم تتجـاوز عقدها الثاني، يفتش في جسدها عن مكان نظيف يترك به علامة يوسخه بمائه السـاخن.. ورأى آخـرون أنـه يبحـث عن سـيدة فـي الأربعين طرية الجسـد يحتمـي تحت نهديها مـن مخاوفه، ويكتب علـى أردافها المترهلة قصته وأسـراره، لكنه يبحث عن بيت قتيله الثانى الذي دخله منذ أكثر من تسـعة أعوام عندما اصطحبه ذات يوم وقضيا معًا أكثر من أسبوع في الحي، حيث تنقل خلاله سعيد بين معظم بيـوت الدعارة وتذوق طعم النسـاء بنهم فتخلـص من توتر البدايات وأصبح يحترف الجنس، يعلم كل خبايا النسـاء، يجامع الصغيرة والكبيرة والنحيفة والبدينة يسـرق منهن المتعة ويروي أجسادهن وقتما أراد..

ـ 9 سنين تُغير العالم وتبدله.

جملة قالها سـعيد لنفسـه وهو ينفـث دخان سـيجارته الملتهب

والهارب من سخونة الشاي بعد أن جلس على أحد المقاهي وتعمد الجلوس بجوار رجل مسن سقطت أسنانه في زحمة الأيام وتبدل لون شعره حتى أصبح بلا لون، اقترب منه سعيد بكرسيه وطلب له قرص معسل وشاي، فقال الرجل العجوز شاكرًا:

ـ شكرًا يا ابني أنا عمك محمد.. إنت مين؟ إنت مش من الواسعة.

ـ إنت تعرف كل أهل الواسعة؟

ـ 70 سنة يا ابني كل عمري قضيته هنا.. أنا أقدم من كل البيوت دي.

ـ فعلاً أنا مش من الواسعة أنا من بولاق أبو العلا.

ـ وبتعمل إيه هنا؟

ـ بدور على بيت صديق.

ـ اسمه إيه صاحبك ده؟

ـ عبد الله.

ـ أي عبد الله فيهم؟

ـ معرفش غير عبد الله بس أنا جيت معاه هنا من 9 سنين ومش فاكر البيت وسمعت أن هو مات وكان له فلوس عندي وقولت أوصلها لأمه وأخواته البنات.

ـ مات..

نطق الرجل بالكلمة وسحب من الشيشة الهواء المليء بالدخان ابتلع معظمه ونفث ما تبقى في الهواء وسأل سعيد:

ـ أخو هند وعزيزة ابن الست قرنفلة؟

ـ هو عنده أختين بس أنا مش فاكر أساميهم.

ـ شايف البيت الواطي ده (وأشار لبيت يتوسط الحارة).

قال سعيد وهو يتبين البيت:

ـ أه.

ـ هو ده بيت عبد الله.

ـ وأمه وأخواته أخبارهم إيه يا عم محمد؟

ـ شايف الجحش اللي قاعد على مدخل البيت؟

ـ أه.

ـ ده قرني جوز هند الكبيرة.. في ليلة سودة وصل خبر مقتل عبد الله ودخل قرني ضحك على أخواته وكانوا لسه صغيرين واتجوز الكبيرة ورمى الولية العجوزة في أوضة على السطوح ورخص البيت وشغل البنتين وجاب عليهم كمان كام بنت.

ـ شغلهم في إيه؟

سخر الرجل من السؤال وقال وهو يضحك:

ـ شغلهم في قصر القبة.

استوعب سعيد مقصد الرجل وسخر هو أيضًا من نفسه بضحكة وأكمل الرجل قائلاً:

ـ والد عبد الله كان صاحبي مات وهو في شبابه ووصاني على أولاده.

صمت الرجل وقال له سعيد:

ـ وبعدين؟

ـ وبعدين إيه يا أفندي؟

ثم استطرد بعصبية:

ـ طلعت راجل خول دا أنا مقدرتش أربى ولادي هعرف إزاي أعمل بالوصية؟

ثم ترك الشيشة وانصرف في صمت كئيب تاركًا الشاي دون أن يقترب منه وقام سعيد هو الآخر قاصدًا بيت عبد الله بعد أن ترك حقيبته الزرقاء لصبي المقهى بعد أن منحه بقشيش أسعده فاحتضن الحقيبة وطمأنه عليها ، وما أن أصبح على بعد خطوات من البيت حتى قام قرني من مقعده وهو يبتسم ابتسامة بلهاء مُرحبًا بالزبون وعرض عليه بضاعته بمجموعة صور أخرجها من جيبه فطلب سعيد عزيزة بالاسم فقال له قرني:

ـ إنت زبون بقى وأنا مش واخد بالي؟

ثم اصطحبه إلى الشقة وعندها تذكر سعيد أيامه في البيت ودخل خلف قرني فوجد هند تتوسط بعض الفتيات وقد تعرف على ملامحها وأشار قرني لأصغرهن فقامت وجذبت سعيد من قميصه فسار خلفها إلى أن أدخلته غرفة كانت في الماضي لعبد الله وجلست على طرف السرير تنتظره فظل بالقرب من الباب ولم يتحرك فقالت بصوت عذب:

ـ أنت ناوي على إيه بقى؟

فرد عليها بسؤال أربكها:

ـ أخبارك إيه يا عزيزة؟

دققت في ملامحه وسألته:

ـ إنت تعرفني منين أنا أول مرة أشوفك؟

تحرك خطوتين وجلس بجانبها وقال:

ـ شوفتيني في طفولتك وأكيد مش فاكراني.

ـ أنت مين؟

ـ أنا سعيد.

ـ سعيد مين؟

ـ صديق عبد الله أخوكي الله يرحمه.

انتفض جسد عزيزة وابتعدت عنه وهي لا تجد ما تقول فجذبها من ذراعها برفق وأجلسها من جديد وطمأنها قائلاً:

ـ ماتخفيش أنا هنا عشان أحميكي وأخلصك من جوز أختك.

قالت ساخرة:

ـ تحميني من إيه؟

ثم لمعت عيناها ونزعت ملابسها حتى صارت كيوم ولدتها أمها وهي تقول:

ـ جسمي ده اتعود على قذارة الرجالة وإنت شكلك نضيف وعشان خاطر أخويا والعشرة القديمة الحساب المرة دي عندي..

اقترب منها ووضع كفه على شفتيها فصمتت وضمها لحضنه فبللت قميصه بماء عينها وهمس في أذنها:

ـ كم رجل نام معاكي؟

قالت بلا اهتمام:

ـ كتير.

حملها عن الأرض ووضعها على السرير وانحنى وقبل يديها ومسح دموعها برفق وأمطرها بقُبلات ساخنة وتحركت يده

الخبيـرة بالنسـاء تداعب الجسـد المنهك تطيب جروحه، شـعرت بنشـوة لم تشـعر بها من قبل، انتفض جسـدها أكثـر من مرة في نصف ساعة وهمس من جديد بنفس السؤال؟

ـ كم رجل نام معاكي؟

ابتسمت هامسة:

ـ واحد.. كانوا حيوانات وإنت راجلي الوحيد.

ـ إيه رأيك نتجوز يا عزيزة؟

رمقته في دهشـه وفي أقل من أسـبوع تزوجها واقتسم البيت مع قرني وأعاد قرنفلة أم عبد الله لغرفتها بالمنزل بعد أن عاشـت في منفاها الإجباري بغرفة قذرة على السطوح، شعر قرني بالضياع بعد أن ألغي سـعيد ترخيص الدعارة وطـرد الفتيات، فدبر له مكيدة حيـث وضع في غرفته وبين ملابسـه سـلاح إنجليـزي، وذهب إلى معسـكر الإنجليز وأبلغ عنه.

وجـاءت القوات بعد أن انتصف الليل وضبطت السـلاح وحُكم على سعيد بالسجن المشدد خمسة أعوام.

(15)

في 30 يناير 1933م وصل أدولف هتلر لرأس السلطة في ألمانيا وأصبح مستشار ألمانيا الرابع والعشرون.

عندما اختارت مجلة التايم الأمريكية أدولف هتلر واحد من بين مئة شخصية أثرت في تاريخ البشرية لم تكن مفاجئة.. فالرجل الذي تسبب في أكثر الحروب دموية في تاريخ البشرية راح ضحيتها حولي 80 مليون قتيل في الفترة ما بين (1939_1945) م.. خرج من النمسا مسقط رأسه فنانًا فاشلًا.. خرج بلا أهل أو أصدقاء إلى ألمانيا وانضم للحزب النازي عام 1920م، أصبح زعيمه بعد عام واحد وقد حارب ضمن القوات الألمانية أثناء الحرب العالمية الأولى (1914م_1918) وسعى هتلر لمعاداة الشيوعية لصالح الأفكار القومية المؤمن بها، وفي عام 1933م صنع وهو على رأس السلطة دولة شمولية ديكتاتورية، سيطر النازيون على أغلبية البرلمان بعد انتخابات عامة، وكان لهتلر كاريزما خاصة جذبت الناخبين ورجحت كفة الحزب النازي.

حاول اليهود في ألمانيا الصمود ضد عداء النازيين رافضين اتهامهم بعدم الولاء للوطن وسعوا للحوار في بداية الأمر ثم تظاهروا ضد مقاطعة تجارتهم، مع الوقت تم تطهير الجهاز الإداري الألماني منهم وعمل النازيون على تهجير يهود ألمانيا بالكامل ورفضت الولايات المتحدة الأمريكية استقبالهم كما رفضت كل أوروبا.

فـي عـام 1934م وبعد عـام واحد مـن حكم هتلر هاجـر اثنان وأربعون ألف يهودي إلى أرض فلسطين.

كانت وزارة الخارجية الأمريكية هي من ساعدت يهود أوروبا شـرقها وغربها في الهجرة مع جهـود بريطانية أيضًا ، كان معظم هـؤلاء اليهـود من أوروبا الشـرقية (الإشـكيناز) وهـم من وضعوا الأساس الديموغرافي لدولة الكيان الصهيوني.

بعـد عـام (1935م) هاجـر ثلاثون ألف يهودي آخـرون إلى أرض فلسـطين معظمهم مـن أوروبا ، وكانـت المنظمـة اليهودية بلندن تمدهم بالطعام والمأوى وتوفر لهم السـفن والقطارات لتنقلهم إلى الشـرق الأوسـط، كان فرع المنظمـة في القـدس يمدهم بالمال ويمنحهم الأرض والسـلاح وينظم لهم تدريبات عسـكرية ليعدهم للقيام بعمليات إرهابية.

فـي نفس العام (1935م) كانت القاهرة تغلي بل كل مصر من الأسكندرية إلى أسوان.. كانت نصف ثورة كما وصفها الأستاذ "محمد حسـنين هيكل" ، لكنها منسـية في الذاكرة الوطنية ، وكان المحـرك الرئيسـي لهـا هم الطلبة وأدت لإسـقاط دسـتور 1930م لصالح دسـتور 23، وشـكل مصطفى النحاس الحكومة بعد إقالة حكومة محمد توفيق نسـيم، وتـم توقيع اتفاقية 1936م بين مصر وبريطانيا والتي نصت على انشاء جيش مصري قوي.

كان العامـل البشـري ضـروري لإقامة هذا الجيـش، وعندها جاءت الفرصة لأبناء المصرين البسطاء للالتحاق بصفوف الجيش.

محمود سالم

عندما نُطق اسـمه ضمن أسـماء المقبولين في الكلية الحربية لـم يصـدق محمود أذنـه وانتظر حتى انتهى الناطق بكل الأسـماء

وسـأل من جديد فتأكد ، عندها عاد إلى بيته شاردًا داخله شعور عجيـب.. لم تكـن منيرة قد عـادت بعد من عملها ولا والده سـالم الجناينـي، فجلس ينتظرهما عند مدخـل البيت، وحين لمح منيرة قادمة من بعيد صعد وترك الباب مفتوحًا لتدخل، وبدخولها هتف:

ـ قبلوني في الحربية يا منيرة.

صرخت:

ـ بتتكلم بجد يا محمود.

ـ أه يا حبيبتي.

اقتربت منه وضمته بقوة..

وفي المسـاء عاد سالم من قصر شيكوريل واحتفل بولده ووزع الشربات على الحارة وهو فخور بأبنائه محمود ومنيرة ونام مطمئنًا على مسـتقبلهم ولم يشـغله إلا زواج منيرة قد تجاوز عمرها 31 عام وطلبهـا للـزواج العديد من أبناء الحـارة وخارجها ، وكانت ترفض فاحتار سالم في أمرها ، وفي ليلة شتوية بينما منيرة تجلس وحيدة بغرفتهـا تحتمي مـن البرد بكلمات سـعيد الدافئـة المحفورة في ذاكرتهـا دخل عليها والدها وأخرجها مـن دفئها إلى العالم البارد فاعتدلت ورحبت به وقالت مبتسمة:

ـ نورتني يا حاج سالم.

جلس الرجل بجانبها وسألها؟

ـ مـش عارف هنقـدر نعيش من غيرك إزاي يـا بنتي بس البنت ملهاش غير الجواز واللي عايزينك كتير.

أدركت سبب الزيارة الغير معتادة وقبل أن تنطق قال والدها:

ـ اتقدملـك ولاد نـاس كتيـر أي بنـت تتمناهم يا منيرة ولسـه

بيتمنوا أى إشارة منك.

صمت الرجل لحظات وقال:

ـ ريحيني يا بنتي وقوليلي إنتِ عايزة إيه وبتفكري في إيه نفسي أفرح بيكي قبل ما أموت.

ـ بعد الشر عليك يا بابا ومتقلقش قريب هتفرح بيا بس إنت مستعجل عايز تجوزني وتشوفلك عروسة إنت كمان يا راجل يا عجوز.

ضحك الرجل بصعوبة:

ـ نفسي أفرح بيكي يا بنتي.

ـ قريب يا بابا إن شاء الله بس إنت إدعيلي.

ـ بدعيلك مع كل صباح وراضي عنك يا منيرة بس نفسي أطمن عليكي وأخوكي الحمد لله ربنا كرمه واطمنت عليه بس إنت بنت وأنا خايف عليكي.

ـ متخافش يا حاج بنتك راجل.

ـ تفتكري مين سأل عليكي تاني يا منيرة؟

ـ مين؟

ـ شبح الخواجة.

ـ شبح.. الخواجة!!!

كان الرجل اعتاد مجالسة شبح سلامون وأصبح تجسده له شيء عادي.. بل أصبح رفيق شبه دائم وأحيانًا يراه في اليوم أكثر من مرة وحين يغيب لفترات وينقطع يشعر سالم بالفقد والفراغ.

ـ مش مصدقاني يا منيرة أبوكي كبر صحيح بس لسه بعقله.

ـ دا إنت سيد العاقلين يا بابا بس إنت شايف أن الموضوع ده

عادي والمفروض أصدقه بسهوله؟

ـ الكل في الزمالك عارف بحكاية شبح الخواجة.

ـ طيب ليه بيسأل عليا؟

ـ سأل عليكي مرتين وأنا آخر مرة سألته ليه منيرة اللي بتسأل عنها؟

ـ وقالك إيه؟

ـ قالي إن إنتِ آخر حاجة فكر فيها قبل ما يموت وكان ناوي يفصلك من الشغل.

ـ ليه؟

ـ كان بيخاف من العناد اللي في عيونك.. هو قالي كده.

تعجبت منيرة من القدر وتذكرت سعيد ورغبته في قتل سلامون من أجل منعها من العمل واكتشفت أن الشيء الوحيد الذي كان يستطيع أن يبعدها عن عملها هو بقاء الخواجة على قيد الحياة، استفاقت وقالت لوالدها ساخرة:

ـ سلملي عليه.

انصرف سالم وترك منيرة للبرد القارص والصمت المخيف تذكرت رقصتها مع سعيد ليلة فرح فاطمة، في نفس الوقت كان سعيد يقضي أخر أيامه في السجن.. أكثر من أربع أعوام في زنزانة ضيقة.. كئيبة وباردة كل نومها كوابيس وكل أحلامها منسية بلا تفاصيل تُذكر حتى أصبح يخاف النوم، في يقظته كان يعيد شريط ذكرياته من الطفولة حتى حاضره المرير ويتوقف بالساعات عند كل ذكرى جمعته بمنيرة وكان يردد دائمًا:

ـ ومن غيرك يا منيرة يهون عليا سجني؟

ـ لم أنسى طفولتك.. شبابك.. كبريائك الملكي.. شطحاتك وجنونك.. غضبك ويأسك.. فرحك وحلمك..

وعندما يفرغ من ذكرياته يأسره الخيال.. يطوي جدار الزنزانة والأسوار العالية كورقة يفركها تحت أقدامه ويخطف منيرة ويرحل بها بعيد عن دولة الملك والأتراك والإنجليز.. بعيدًا يرحل بحبيبته في عزلة بها منيرة.. منيرة فقط.

ومن الخيال للواقع حيث أصيب في آخر أيامه بهواجس أفسدت ذكرياته وخياله فأصبح متوتر يتمنى أن يأتيه خبر من عند منيرة يطمئنه، مرت أيامه الأخيرة أصعب من أيامه الأولى، لكنها مرت، وأنهى فترة سجنه، وكان قد عقد النية أن يُنهي ما بدئه قبل سجنه فتوجه مباشرًة إلى حي الواسعة بالأزبكية.

لم تختلف الحارة كثيرًا.. ظلت على نجاستها وإزداد عدد القوادين على مدخلها، وتوجه إلى منزل عبدالله ولم يجد قرني أمامه فصعد السلم وطرق الباب.. فتحت عزيزة فتغير لون وجهها وصرخت باسمه وعانقته بشده فسألها:

ـ أخباركم إيه يا عزيزة؟

ـ إحنا بخير اطمن يا سعيد.

ـ وقرني فين؟

قبضت على ذراعه بقوة وقالت:

ـ قتلته وانتقمت لجوزي.. كان ناوي يرخص البيت من جديد وإحنا ما صدقنا نضفناه والفضل يرجع ليك يا راجلي الوحيد.

ـ عرفتي تقتلي يا عزيزة؟

ـ أسهل حاجة الموت.

ثم أشارت إلى قلب سعيد وأردفت:

ـ أسهل من الحياة بكتير.

ـ وأختك عملت إيه؟

ـ أختي كانت بنت أرجل من شنبات كتير بس قرني حولها لبنت ضعيفة وجبانة ولما قتلت جوزها خافت مني ومقدرتش تتكلم واتجوزت تاني وسابت الحارة كلها ، ودلوقتي خلفت بنت وولد وأمي خلاص يا سعيد في أيامها الأخيرة ومفيش يوم بطلت تدعيلك ونفسها تشوفك بتقول: إن أنت بتفكرها بعبد الله.

عندما تم القبض على سعيد كانت عزيزة أقرب لطفلة أكثر من كونها فتاة ناضجة تستطيع أن تقتل وهذا ما جعل سعيد يتعجب ويسألها:

ـ قتلتي قرني إزاي؟

أدركت التعجب خلف السؤال وابتسمت وهي تقول:

ـ تعلمت من أخويا ومن جوزي.

ارتبك وسألها:

ـ تقصدي إيه؟

ـ إنت إيه حكايتك يا سعيد إزاي تدخل وسطنا وتتجوزني في أقل من اسبوع؟

ـوليه تتسجن 5 سنين وتخرج راضي... ليه كل ده؟

ـوإيه الكتاب اللي وسط هدومك ده وليه محتفظ بورق الجرايد؟

ـعلي رقم 1 وعبد الله أخويا رقم 2.. مين رقم 3؟

لم ينبس بكلمة حتى صمتت ليجيب..

قال:

ـ أنـا اللـي قتلت عبـد الله وقتلت علـي من قبلـه وقتلت بعدهم ولكني توبت ودفعت التمن ولسه بدفع.

ـ وليه تندم وتدفع.. أنا أهو قتلت وممكن أقتل تاني عادي؟

قال:

ـ العشق..

وصمت.

شـعرت أن خلف هذه الكلمات قصة كبيـرة وكانت تتأكد وهـو في حضنها ، أن هذا الجسـد القوي روضتـه أنثى، وأن دقات قلبه تهتف بإسـمها ، لم تسـمع من قبل عن رجل ضحى وترك أهله وسُجن من أجل امرأة فهمست وقد تعلمت من همساته الرقيقة:

ـ احكيلي؟.. ما أجمل كلمات الحب على لسانك.

صوبت كرة متقنة دون أن تدري فسجلت هدف في إحدى زوايا قلب سعيد.. الزاوية التي سجلت باهتمام كلمات منيرة فقال ضاحكًا:

ـ نفس كلام منيرة.

فتطلعت إليه:

ـ اسمها منيرة؟

ـ أه منيرة.

طلب منها شـاي قبـل أن يحكي لها فذهبت لتحضره فانشـغل بمؤخرتها الرائعة وهي تتموج على شاطئ شهوته المكبوتة ، أشعل سـيجارة من النار التي اشـتعلت في جسـده بعد خمس سـنوات لم يتـذوق فيهـم طعم الجنس حتى في أحلامه حيـث كان ينزوي في ركن من أركان الزنزانة يشـغله قلبه فقط وتأسـره أدق تفاصيل

منيرة ثم فكر في عزيزة وتسأل:

ـ هل انتظرته كما تنتظره منيرة وهل شعرت بخيبة أمل بعدما أفصح لها عن عشقه؟

ترجرج صدرها وهي تضع الشاي أمامه ولاح كنزه أمام عينيه واضحًا.. ارتشف من الشاي فلم يشعر بسخونته أمام سخونة جسده وشعر بمذاق جديد.. اللذة الأولى والانطباع الأول وكأنه لم يتذوق شاي من قبل وتأكد أن لذة الجنس ستكون أيضًا مثل لذة الشاي.

كانت تعد له الشاي هي على نار أخرى.. نار جسد اعتاد عبث الرجال لسنوت وتحول لجسد راهبة فاجأة إلى أن ثار عليها اليوم أمام سعيد الذي تلاعب به وأسكن غروره وهيجانه ثم غاب لسنوات.

ـ أمي سامحتك حتى لو قتلت كل أولادها بعد ما رجعتها لأوضتها وبناتها وأختي سعيدة بحياتها الجديدة وأولادها.

هذه الكلمات كانت أول ما نطقت عزيزة بعد أن حكى لها سعيد قصته وطلب منها العفو قائلاً:

ـ وأنتِ؟

ـ مش هسامحك دلوقتي.

وقضى سعيد مع عزيزة أكثر من ثلاثة أشهر ماتت فيهم قرنفلة أم عبد الله وصلى عليها سعيد الجنازة إمام وخلفه بضع رجال بعد أن اغتسلوا من نجاستهم وساروا بالجنازة في شوارع الأزبكية ودفنوها بالمقبرة التي احتفظت بما تبقى من جسد عبد الله ابنها وسمحت له عزيزة بالرحيل عندما أراد أن يُطلقها رفضت حتى يتذكرها دائمًا ويحميها حتى في غيابه كما صانت نفسها وهو في سجنه وآخر ما قالت له:

انتظرك كما تنتظرك منيرة...

(16)

1935

كادت أمطار السماء تُغرق القاهرة، خلت الشوارع بعد أن احتمى أهلها في البيوت وانطلقت سيارة سوداء تتبع القلم السياسي تشق شوارع القاهرة وتغتصب سكونها وترعب ساكنيها تستهدف ثلاثة شباب.. كانت كالرصاصة التي أطلقها قناص محترف نحو هدف واضح.. خرجت السيارة بعد انتصاف الليل وعادت مع أذان الفجر محملة بفرسان جريدة الصرخة التي تندد بالوضع السياسي، كان أول هؤلاء الشباب "فتحي رضوان" الذي أصبح فيما بعد وزير الإرشاد (وزير الإعلام) عقب ثورة يوليو.

أما الثاني "أحمد حسن" الذي أسس حزب مصر الفتاة والثالث "حافظ محمود" رئيس تحرير الجريدة.

تسبب اعتقال هؤلاء الشباب في اشتعال الشارع المصري وتعاطف الجميع معهم وذهب الناس في جماعات إلى السجن الذي أودعوا فيه مقدمين لهم أشهى الطعام بشكل يومي وقدم لهم المساجين الفراش والأغطية ومثل هؤلاء الشباب وقود لثورة كامنة في صدور المصريين.

يوم المحكمة تسابق المحامون للدفاع عنهم، خرج من بين الصفوف رجل شيخ جليل هو "محمد علي باشا علوبة" وزير حقانية سابق (وزير عدل) وطلب من القاضي إلقاء كلمة فلم يستطع

القاضـي الرفض أمام مكانـة الرجل الاجتماعيـة والوزارية، قال علوبة للقاضي:

ـ أطلب من حضراتكم تدوين كلمتي في محضر الجلسة.

وكان هـذا هو النظام المتبـع في الأنظمة القضائية حتى يومنا هـذا، وانطلق علوبة في خطاب حماسـي قرأ خلالـه مقال "حافظ محمود" الذي يحاكم بسببه، عندما انتهى قال للقاضي:

ـ والآن يـا سـيدي قلـت وأسـجل فـي محضـر الجلسـة نفـس الكلام الذي سُـجن هؤلاء الشـباب بسـببه، وعليك الآن أن تطلق سراحهم أو تقضي بسجني معهم.

ضجت قاعة المحكمة بالتصفيق والهتاف وصاح القاضي:

ـ رُفعت الجلسة.

وبعدها تنحى القاضي وحكم في القضية قاضي آخر أفرج عن الشباب الثلاثة.

في التاسـع مـن نوفمبر عام 1935م صرح السـير "صمويل هور" وزير الخارجية البريطاني قائلاً:

ـ "كانـت نصيحتنـا للمصرين موجهة ضد إعادة دسـتوري 23 و30 لأن الأول ظهـر أنـه غير صالح للعمـل والثاني ضد رغبة الإجماع الوطني".

كان هـذا التصريـح بمثابـة عـود ثقـاب أشـعل فتيل الثـورة في أجسـاد المصرييـن بعـد شـعورهم بالإهانة تجاه حكومة تستشـير الإنجليـز فـي أمورهم وتنفذ إملاءات المحتـل، كان هذا التصريح قبـل عيـد الجهـاد الوطني بيومين فتحـول الاحتفال بهـذا العيد إلى مظاهرات قادها شـباب الجامعة وانضم لهم طلبة المدارس هاتفين

ضد تصريح هور وضد الإنجليز وضد الحكومة مطالبين بعودة دستور 23 ، عندما حاول الشباب عبور كوبري عباس في طريقهم إلى قلب القاهرة قاصدين بيت الأمة وميدان عابدين منعهم البوليس وأطلق النار على من تمكن من العبور، وفي اليوم التالي كانت المظاهرات على أشُدها فخرج طلاب الجامعة وشارك معهم طلاب معظم المدارس واجتاز المتظاهرين هذه المرة كوبري عباس ووجدوا كونستبلات الإنجليز في انتظارهم، وحدث صدام قوي، سقط على أثره الطالب "**محمد عبدالمجيد مرسي**" طالب كلية الزراعة جريحًا ، وتوفى في المساء متأثرًا بجراحه، وسقط طالب آخر هو "**محمد عبدالحكيم الجارحى**" طالب كلية الآدب، وأصدر أحمد لطفي السيد مدير جامعة القاهرة قرارًا بإغلاقها وتأجيل الدراسة.

في 16 نوفمبر خرجت مظاهرة كبيرة من مدرسة دار العلوم بحي المنيرة وحدث صدام بين هذه المظاهرة وبين البوليس واستشهد الطالب "**علي طه عفيفي**" في اليوم التالي متأثرًا بجراحه وشيعت جنازته من وسط القاهرة وسط الآلاف من المتظاهرين، وكان رد فعل حكومة نسيم باشا بمثابة زيت ملتهب أُلقي على ألسنة النيران التي تعانق السماء فزادت من اشتعالها حيث نص البيان على منع التظاهر وهدد باستخدام العنف.

بالفعل اشتعلت المظاهرات أكثر وأكثر صبيحة البيان يوم 21 نوفمبر وأُعلن هذا اليوم يومًا للإضراب العام، وفي 27 نوفمبر عقد الطلبة مؤتمرهم العام بمدرجات كلية الطب واتفقوا على مقاطعة البضائع الإنجليزية، وترجمة المطالب إلى كل اللغات وتوزيعها على كل المفوضيات الأجنبية وإرسالها إلى صحف

إنجلترا وأصدر أحمد لطفي السيد قرارًا آخر بإغلاق الجامعة حتى منتصف ديسمبر .

شيد الطلاب النصب التذكاري تخليدًا لأروح الشهداء وحاول السير هور من خلال خطاب في البرلمان الإنجليزي التخفيف من حدة تصريحه السابق ولكن استمرت حدة المظاهرات، وتشكلت في 11 ديسمبر "الجبهة الوطنية" وهي إئتلاف من جميع الأحزاب وأرسلوا خطاب للملك مطالبين فيه بإعادة دستور 23 وأرسلوا خطاب آخر إلى المندوب السامي البريطاني مطالبين إياه بإبلاغ حكومته في الرغبة بإبرام معاهدة بينها وبين حكومة مصر، وافق الملك على طلب الجبهة الوطنية وأصدر أمرًا ملكيًا في 12 ديسمبر بإعادة دستور 23 وأُجبرت حكومة نسيم باشا على الاستقالة، وشكل مصطفى النحاس الحكومة التي أبرمت مع الحكومة الإنجليزية معاهدة 36.

صار الطلبة بعد عام 1935م رجالاً في طريق استقلال الوطن وأصبح حلم الاستقلال مشروعًا وممكنًا وقريبًا.

أدرك يوسف شيكوريل حتمية انشاء أوريكو في أسرع وقت ممكن فتخلى عن الجلوس في نادي الجزيرة مع كل صباح، وانشغل عن النيل بمتابعة أخبار المظاهرات والإعداد للمشروع الجديد، اعتاد الذهاب مبكرًا إلى المحل الكبير بميدان العتبة، ذات يوم كان جالسًا وأمامه كومة من الصحف القاهرية والأجنبية فطلب القهوة المعتادة وأرسل في طلب مجموعة من العمال من بينهم منيرة في الوقت الذي كانت منيرة تذوب وسط الطلبة الذين يملؤن الشوارع تهتف معهم بصوتها المميز يسقط الإنجليز.. يسقط الإحتلال والوصاية.. يسقط نسيم وتسقط كل

الحكومة، وصلت محل شيكوريل بعد الساعة العاشرة صباحًا وتوجهت مباشرة إلى مكتب يوسف، وكان سلفاتور شيكوريل أيضًا في المكتب، معهما مجموعة من العمال على رأسهم مدام ميرال فحيتهم منيرة واعتذرت عن التأخير، أكمل الجالسون دائرة النقاش وقال يوسف شيكوريل من جديد حتى تعلم منيرة سبب الاجتماع:

ـ سنفتتح محل جديد بأسعار تناسب جميع المصرين ونحتاج من بينكم من يديره ويختار عماله وقد اتفقت مع مدام ميرال أن تكون هي المسئولة عن إدارته وأن ترأس منيرة العمال هنا.

كانت نبرة صوت يوسف شيكوريل قاطعة تعلن نهاية الاجتماع دون نقاش ولكن سلفاتور كان لديه ما يضيفه فقال:

ـ نهدف إلى أن تكون محلات شيكوريل لكل المصرين وأرى أن تذهب منيرة لإدارة المحل الجديد فهي تستطيع التعامل مع جميع فئات المصرين.

قال يوسف:

ـ رأيك صائب يا سلفاتور.. ونظر إلى منيرة...

لم تجد منيرة سبب لترفض ولم تجد سبب لتقبل فاكتفت بإيماءة خفيفة من رأسها لم يتبين يوسف شيكوريل منها الموافقة أو الرفض أو حتى طلب مهلة للتفكير، لكنه تبين حضور منيرة جيدًا فهو حضور مختلف يميزه الأعمى، أكتشف في نفسه إعجاب شديد بها وتخيل في لحظات محل شيكوريل بدونها فعاد مسرعًا إلى رأيه وقال بعد أن نظر في الهواء يستجمع الأفكار أو يصطنع التفكير أمام الحضور:

ـ أعتقـد أنه من الأفضل أن تذهب مدام ميرال وأن تبقى منيرة هنا.

كان لابد من سبب مقنع لعودته وتمسكه برأيه على الأقل من أجل سلفاتور فأردف متحججًا:

ـ تذهـب مدام ميرال لتختار العمـال لخبرتها الكبيرة وتذهب منيرة بعد أن يستقر سير العمل بالمحل.

أبـدى سـلفاتور موافقتـه وتحمسـه للفكـرة فانتقـل يوسـف بمؤخرتـه الرشـيقة مـن أطراف الكرسـي الكبير إلـى منتصفه وأسـند ظهره فخورًا برجاحة فكره وسـرعة بديهته ونظر في زهو إلـى أعلى فوجد أنـف منيرة بنت الجناينى أعلـى من نظره فتعجب وكتم غيظه وهو يحدث نفسه:

ـ ومـا أنـتِ إلا حفيـدة جنـدي فرنسـي جـاء مـع نابليـون عبر الأسـكندرية أو حفيـدة أحـد الإنجليز الذين عبـروا القنال وقضوا على جيش عرابي في التل الكبير.

ارتـدت خصلـة ذهبيـة من شـعر منيـرة رفضًا لهواجس يوسـف شيكوريل وخرجت عن باقي شعرها المصطف بعناية ورسمت على جبينهـا نهر النيل بانحناءته وفروعـه وفيضانه المجنون الذي أغرق سلامون شيكوريل، واليوم يسبح فيه يوسف ضد تياره العنيد.

تعجـب يوسـف وإحتار في أمر فتاة تهزمـه حتى بصمتها وكان يتسـأل دائمًا عن أسـباب عـدم زواجهـا، اليوم اكتشـف أنها في انتظـار بطل خارق يفعل المسـتحيل من أجلها وتخيل نفسـه بطلها وهو يقول لنفسه:

لما لا والسلطان فؤاد الأول نفسه فعل المستحيل من أجل نازلي المصريـة حتى تزوجها.. ولكن نازلي كانت بنت محافظ القاهرة

وقد أصبح وزيرًا بعد زواج ابنته من السلطان، ومنيرة بنت جناينى بسيط فما العمل؟

كانت منيرة تهمس لمدام ميرال وسلامون منشغل بأمر أوراق تخص صفقة ملابس إنجليزية في الوقت الذي كان يوسف شيكوريل يتزوج من منيرة ويعيش دور البطل وانتهى الاجتماع وبدأت مأساة يوسف شيكوريل.

لم تمضي سوى أيام حتى انتهى عام 1935م بعد أن سُجل في الذاكرة الوطنية المصرية بالدماء والهتاف والصمود.. دماء الطلبة وهتاف الشباب وصمود الفتية، وبينما كانت الحكومة الإنجليزية توقع مع حكومة النحاس على معاهدة 36 من أجل تقنين الإحتلال والبقاء في مصر كانت عائلة شيكوريل تسعى للبقاء في الجزيرة الساحرة بالقرب من النيل العظيم عن طريق أوريكو بعد افتتاح كبير لم يشهد أي فرع من فروع شيكوريل افتتاحًا مثله حضره عامة المصريين.

(17)

سيد الرجال

عاد سعيد مرة أخرى بعد خمس سنوات مرت عليه كالقطار الثقيل الذي يسير ببطء على قطبان تئن وتصرخ.. رأى الخمس سنوات وقد حفرت وجه أمه من جديد وغيرت لون عينيها وشعرها وهزل الجسد العنيد وقلت الحركة وتوترت الكلمات وغابت حدتها وبكت السيدة المسنة وبكى في حضنها الهش والخاوي كأطلال بيت قديم مهجور ورجته وهي تقبض على كفه:

ـ بلاش تسيبني تاني يا ابني أنا كبرت ومليش غيرك.

قال وهو يحاول أن يلطف الحوار:

ـ هي البنت فاطمة مش بتزورك ولا إيه؟ إيه جوزها شغلها عنك يا حاجة؟

ردت وهي تتأمله:

ـ فاطمة مالهاش دلوقتي غير جوزها وده حقه عليها فين بقى حقي عيك يا سعيد؟

بكت من جديد.

قال وهو يحتضنها:

ـ مش هسيبك تاني يا أمي.

اعتدلت ونظرت إليه وهي تقول بحدة:

ـ أنا شوفتلك عروستين اختار واحدة منهم.

تذكر منيرة وقال مبتسمًا:

ـ العروسة موجودة يا أمي بس إنت توافقي.

نطقت في لهفة:

ـ مين؟.. لو إنت موافق أنا موافقة بس بلاش تبعد تاني.

ـ منيرة بنت عم سالم صاحبة فاطمة.

ـ زين ما اخترت يا ابني منيرة واحدة من العروستين اللي كنت بقولك اختار واحدة منهم.

ـ أنا اخترت من زمان يا أمي.

ابتسمت وهي تهز رأسها:

ـ هي كانت مستنياك يا سعيد؟

ـ آه يا أمي هي اللي بعدتني عن الحياة اللي كنت عايشها.

ـ والله فيها الخير يا ابني طول عمرها بنت حلال الله يرحم أمها إنت متوعاش عليها يا سعيد.

ـ فاكرها بس كنت صغير.

ـ كانت ست ولا كل الستات.. فعلاً يا سعيد اللي خلف مامتش.

ـ فعلاً يا أمي منيرة مش هلاقي زيها.

ـ طيب يا ابني مستني إيه؟

ـ لسه يا أمي أنا غلطت كتير ولازم أصلح اللي أنا عملته.

ـ لإمتي يا سعيد؟

ـ مش عارف يا أمي.

ـ البنت كبرت وأنت كمان كبرت.

قال سعيد وهو يتوجه إلى غرفته:

ـ ربنا يقدم اللي فيه الخير.. تصبحي على خير يا أمي.

دخل غرفته وطل من شباكها على شباك منيرة وهو يفكر في كلام أمه، وتعجب من تأثير السنوات الخمسة عليها، تأمل ملامحه في المرآة وأصابه هوس رؤية منيرة فتذكر قدرته على اختراق الأبواب المغلقة، سرعان ما عدل عن هذه الفكرة ولم يستطع النوم في هذه الليلة حيث ظل يفكر ويتسأل:

ـ ماذا فعلت بك الأيام يا منيرة؟

ـ هل بدلتك وغيرتك؟

ـ لماذا تحملتٍ معي وزر الماضي وخطورة المستقبل؟

أشعل سيجارة وسحب دخانها على صدره كانتقام وجلد لذاته وهو يحدث نفسه:

ـ كم ظلمتك يا بنت حارتي وصديقة أختي.

ابتسم وهو يتذكر كلماتها، عندها أطلت الشمس من بعيد في فجر يوم موعود.. اليوم الذي سيلتقي فيه العاشقان.

في الثامنة صباحًا عاد سعيد للأيام الخوالي.. كان يعتاد دائمًا الانتظار كمن يداوم على ممارسة الرياضة مع كل صباح وهي لم تتأخر كعادتها وأطلت من بعيد فاهتز سعيد وتوترت أطرافه وارتفعت درجة حرارته بعض الشيء، تعجب من تأثير الزمن عليها.. إزدادت جمالاً وتألقًا فلعن السلطان وزوجاته وهو يقول:

ـ أنتِ السلطانة والأميرة وأنت السيدة الأولى والأخيرة.

ـ أنتِ من هزمتٍ الزمن والطبيعة.

ـ ما أجملك، ما أروعك.

ـ لن أتركك من جديد فأنا عدم إن لم تكوني أنتِ الحياة.

سعيد..

نـداء داخلي من قلب منيرة وهي تخطو أولى خطواتها نحو محل شـيكوريل، لم تلتفت خلفها خوفًا من خيبة أمل جديدة واكتفت بالنظر إلى شـباك غرفته فوجدتـه على غير العادة مفتوح فخدعت حركة الهواء العالق بها ونظرت خلفها في لهفة..

كان سعيد على بعد خطوات منها.

جميلاً كما تمنته.

ومبتسمًا كعادته.

وأنيقًا كما عودها..

توقفت فاقترب منها فقابلته بالدموع وهي تقول:

ـ خمس سنين يا سعيد.

قال في شجن:

ـ خمس سنين يا منيرة بهتف باسمك.. أنا خلاص مش قادر.

ـ ولا أنا يا حبيبي كفاية كده.

توجها معًا إلى الميدان الكبير بعد أن صرفت نظر عن الذهاب للعمل وصرفت نظر أيضًا عن قتلى سعيد وماضيه.

لم يمر سوى شهر وشهدت بولاق فرح سعيد ومنيرة وحضر معظم العاملين في محل شـيكوريل وعلى رأسهم يوسف شيكوريل بعد أن قبل دعوة منيرة بخيبة ظهرت على ملامحه ولم تستطع تفسيرها ولم تنشـغل بأمره، ومنحها يوسـف شـيكوريل فسـتان الفرح دون مقابـل كهديـة من المحـل وهو حزين يتحسـر علـى ضياعها بعد

أن شـغلته وحركت شـيئًا ما بداخله وصمم على الحضور، يدفعه الفضول لرؤية البطل سيد الرجال الذي حصل على الكنز الكبير واصطحب سلفاتور معه بحجة الاحتكاك بالمصريين.

وقف سـالم الجنايني وبجانبه محمود ابنه في اسـتقبال ضيوف منيـرة ورحـب بـ يوسـف شـيكورل وسـلفاتور وهو يُعـرف محمود بفخر:

ـ محمود ابني في الكلية الحربية.

ابتسـم يوسـف لسـلفاتور ابتسـامة بلهـاء ليـس لهـا معنـى غير السخرية وقال لمحمود:

ـ الجيـش المصري هيحارب من أجل الإنجليز ولا هيحارب من أجل الأتراك؟

رد محمود في حدة:

ـ من أجل المصريين.

قال سلفاتور:

ـ ولماذا يحارب المصريون يا محمود؟

قال محمود في ثقة:

ـ في يوم ما سـتتحول مصر إلى دولة حقيقية تستقل عن الوالي العثمانّي وتطرد الإنجليز وكل ده يحتاج جيش قوي.

قال يوسف لمحمود:

ـ يومًا ما.... متى؟

ابتسم محمود ابتسامة هادئة وهو يقول:

ـ عندما ينتهي فرح منيرة..

أشـار لمنيـرة وهـي تتلألـئ وسـط الزينـة وسـعيد يعتلـي كل الصخـب بحضـور جميل وقـوي ورأى كل من حضـر الفرح حجم النشـوة والفرحة على وجه العروسين، فأدركوا قصة العشق التي جمعتهم سـنين دون أن يعلموا عنها شيء، كان يوسف شيكوريل ينتفض كسـمكة حية طالتها النار بعد أن رأى سـعيد بطل منيرة الحقيقـي ومحمـود ضابـط الجيـش واختلـط بأبنـاء المصرييـن الحقيقين لأول مرة، عاشت بولاق ليلة لم تشهد مثلها من قبل وعاد يوسـف شيكوريل وسـلفاتور إلى جزيرة الزمالك صامتين فاقدين القدرة حتى على النقاش وقد آثروا الصمت.

اختلفت غرفة سـعيد بعض الشيء بعد تجديد الأثاث واستقبلت رائحة دهان الحوائط العروسين فسارع سعيد بفتح الشباك ولم يطل لأول مرة على شـباك غرفة منيرة فقد كانت خلفه تعبث بأشـيائه بعد أن جلسـت أمام مكتبه الصغيـر تبتلع مخاوفها وتحاول إزاحة الجبـل الـذي بداخلها، سـقط نظرها علـى "الجرام فون" فأسـرع سعيد وثبت به أسطوانة مخزن عليها نغمات شرقية هادئة.

ابتسمت وضمته حتى عظامه بين ذراعيها والتهمت شفتيه بنهم، غابـا في قبلة طويلة شـعرت بـه يرقص مع الدم فـي عروقها.. يوزع الحياة على جسـدها.. يملأ رأسها.. كان سعيد يتحسس الدنيا من حوله فوجدها صامتة ساكنة كمقبرة، أدرك أن الحياة فقط في حضن حبيبته واكتشـف أن خبرته بالنسـاء تتلاشـى فليست كل النسـاء منيرة، مال نحو السرير وأجلسها وجلس بجانبها وبدأ ينزع ملابسـه بعشـوائية، كانت منيرة قد أعدت له جسدًا ساخنًا وبين ساقيها كنز محفوظ معد ومستعد لليلة العمر.

(18)

شبح بلا ذاكرة

مـرت علـى القاهـرة سـنوات غبية يحلبهـا الأتراك فـي الصباح ويغتصبها الإنجليز في المسـاء وزرع القائد الألماني "رومل" الألغام فـي بطنهـا بعد فرار مرتبك أمـام قوات الحلفاء ومـرت على الدنيا سـت سـنوات وهي تستنشـق البارود وتلتهـب بنيران حـرب عالمية أشـعلها الرسـام الفاشـل "هتلر" حيث رسـم لوحة للعالم بدماء 80 مليون إنسان وسعى نازيو ألمانيا لتهجير كل اليهود ومنع اليهودي من امتلاك رخصة قيادة وأُجبر على حمل بطاقة هوية تبين ديانته.

مـع بداية الحرب كان عدد اليهود في ألمانيا 200000 يهودي، وتـم فـرض قوانيـن تمنعهـم من السـير في الشـوارع بجانـب باقي الألمان، وتـم مصادرة الأجهـزة الكهربائيـة والدراجات الخاصة بهم والسيارات من قبل الشرطة، مع الوقت تم تجريم استخدامهم للنقـل العـام، وأقدم أكثـر من 4000 يهـودي على الانتحـار، وتم تهجير اليهود بصورة منظمة.

فـي عـام 1942م تـم إرسـال مـا تبقـى منهـم فـي ألمانيـا إلـى معسـكرات التكثيف، ولم يتبق في ألمانيا سـوى 15000 يهودي اسـتطاعوا الاختباء والنجاة من الهولوكوسـت التي قضت على ما يقرب من 200000 يهودي.

فـي فلسـطين كانـت المعانـاة أكبر وأصعـب وتدفـق اليهود

عليها من كل أرجاء الأرض هربًا من هتلر وأملاً في بناء وطن في أرض الميعاد، كان بعض يهود مصر يتدفقون على فلسطين مشاركين المسلحين في الدفاع عن الأرض التي سيطروا عليها بل والسعي نجو المزيد، أما اليهود الرافضين لإقامة وطن على أرض فلسطين فقد كانوا يتحولون شيئًا فشيئًا ويلتحقون بمن سبقهم إلى فلسطين.

رغم وصول سلفاتور شيكوريل إلى زعامة الطائفة اليهودية في مصر فقد كانت الأحداث والتطورات السريعة أقوى منه بعد أن استغل علاقاته وشهرته كقائد لمنتخب المبارزة المصري، قد شارك باسم مصر في محافل رياضية إقليمية وعالمية ومع شهرته كتاجر كبير يمتلك مناصفة مع أخيه الأكبر تركة مورينيو شيكوريل، قد رأى يوسف شيكوريل أن سلفاتور هو القادر على الإطاحة بعائلة قطاوي من زعامة اليهود، بالفعل نجح في ذلك عام 1946م، لكن بعد فوات الأوان.

مرت فترات عصيبة على المنطقة بعد أن خمدت نيران الحرب في كل العالم واشتعلت في أرض فلسطين، خرج رجال الجيش المصري بعد الحرب العالمية الثانية ناقمين على الملك والإنجليز وعاش محمود سالم كل هذه الأحداث، وصدى كلمات يوسف شيكوريل لا تفارقه..

ـ من أجل من يحارب الجيش المصري يا محمود؟

أدرك مقصده ورأى بعينية وطنًا بأرضه وثروته وجيشه يتورط في حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، ذات يوم وبعدما غاب لفترة عن القاهرة بعدما شارك مع كتيبته بسلاح المدفعية في مناورات متوترة عاد إلى القاهرة وذهب للقاء شقيقته منيرة بمحل

شـيـكوريل فصادف يوسف شيكوريل وهو في طريق الخروج من المحل فحاول تجاهله ولكن يوسف أسرع إليه قائلًا:

ـ أهلا يا حضرة الضابط.

رد محمود بوجه جامد:

ـ أهلًا بحضرتك يا خواجة.

ـ استفز يوسف شيكوريل من أسلوب محمود ولم تعجبه كلمة خواجة فقال:

ـ أنا مش خواجة اتفضل نشرب قهوة في مكتبي.

لم يجد محمود أي سبيل للرفض، سار خلف يوسف شيكوريل الذي عاد إلى مكتبه من جديد وهو يسأل محمود عن أخبار الجيش المصري فقال محمود:

ـ جاء الوقت ليكون لنا دور في كل ما يحدث.

فقال يوسف:

ـ كيف يا محمود وأنتم تحت مطرقة الملك وسندان الإنجليز؟

ابتسم محمود بمعاناة وقال:

ـ لن يستمر هذا الوضع كثيرًا فقد سأمنا.

قال يوسف:

ـ يا محمود ليس هناك أقوي من الإنجليز ولن يسمحوا بذلك.

رد محمود بتحفظ قائلاً:

ـ ولكن الحق أقوى وأبقى.

دخل سلفاتور المكتب هو الآخر ومن بعده منيرة ولأول مرة يجتمع يوسف وسلفاتور ومحمود ومنيرة في غرفة واحدة، رحب

سـلفاتور بمحمود وعانقته منيرة وجلس الأربعة بعد أن طلب يوسف القهوة للجميع وتحدث سلفاتور إلى محمود قائلاً:

ـ أصبحـت زعيـم الطائفة اليهودية في مصـر فكيف تنظرون من داخل الجيش ليهود مصر؟

قال محمود:

ـ نحـن نعلـم جيدًا عـن دور البعض مـن يهود مصر فـي تمويل المنظمات الصهيونية وهذا شـيء اسـتفز المصريين جيشًـا وشعبًا، هناك من ذهب وحمل السلاح في وجه أهل فلسطين وهناك من امتنع ورفض كل هذا.

قال يوسف:

ـ وكيف ترى القادم وأنت رجل من رجال الجيش؟

ارتشف محمود من فنجان القهوة على عجل وأردف:

ـ الوضع اختلط علينا كما اختلط على كل المصرين، هناك الكثيـرون أصبحـوا ناقمين علـى الوضع ورافضيـن للعنف الممنهـج والإرهـاب الواضح مـن الجميع ضد أهل فلسـطين وقريبًـا سـيكون لنا موقف وحسـاب عادل لـكل من عاش بيننا وهو يسـعى خلـف المنظمات الصهيونيـة، نحن نعلمهم جيدًا.

تدخل سـلفاتور وحاول إثبات الولاء وحسن النية، وسأل محمود عن بعض أفراد الجيش ممن تجمعه علاقة بهم، وسـأله عن طبيعة الموقف الذي يسعى إليه رجال الجيش.

قال محمود متحفظًا من جديد:

ـ اقترب اليوم الذي سـترى فيه دور الجيش المصري ولن نترك

الإنجليـز والملـك يعبثـون بشـئوننا ، لن نترك أهل فلسـطين لإرهاب المنظمات اليهودية.

تـرك محمـود ومنيـرة يوسـف وسـلفاتور وانصرفـا تاركيـن الشـقيقين فـي حالة توتـر ممزوجـة بالخوف مـن كلام محمود ، حاول سلفاتور طمأنة يوسف قائلاً:

ـ نحـن أبعـد ما يكون عن كل ما يحـدث ولنا من يحمينا هنا ولـن يقتـرب أحد مـن تجارتنـا وأعمالنـا ، فأنـا أنافس كل المنتخبات في المبارزة تحت علم مصر.. لا تقلق يا أخي فهذا وطننا ، وفيه عاشـت أسـرتنا ولنـا قصرنا ولنـا مقبرتنا التي سندفن بها إلى الأبد ، كما دفن والدنا ومن بعده سلامون.

فكر يوسف قليلاً وقال باقتضاب:

ـ لابـد أن نفكر فـي كل الاحتمالات، وفـى كل الأحول لن نذهب إلى أرض فلسطين.

ابتسم سلفاتور وقال:

ـ ولن نترك مصر من الأساس.

ـ مـن أيـن تأتيـك كل هـذه الثقة؟.. ألـم تر الحـدة في كلام ابـن الجنايـنـي الذي ظل يخدم في قصرنـا إلى أن مات وطين حديقتنا ملتصق بجسده.

ـ سـعيت منذ فترة يا يوسف لمصادقة رجال الجيش وأصبحت الآن على علاقة قوية ببعضهم وهذا مصدر ثقتي.

تأمل يوسف صورة سلامون التي تجاور صورة مورينيو الأب:

ـ مازال صدى كلمات سـلامون يتردد على مسـامعي مع كل صبـاح وأنـا أعبـر النيل، فقـد كان يـرى ما نعيشـه الآن يا

سلفاتور.

نظر سلفاتور هو الآخر إلى صورة سلامون وهو يقول:

ـ وأنا لم أنس ما قال يا أخي ونحن فعلنا كل ما نستطيع من أجل قتل مخاوفه فماذا نفعل بعد كل ذلك؟

قال يوسف وهو يترك مقعده:

ـ فات الأوان يا أخي وما علينا سوى مراقبة ما يحدث، وأن نستعد جيدًا لكل الاحتمالات.. ثم غادر المكتب تاركًا سلفاتور وحيدًا يفكر في المصير الذي شغل سلامون ومن بعده يوسف والآن أصابته الهواجس هو الآخر.

في الطريق إلى بولاق كانت منيرة تقبض على ذراع محمود تحاول أن تستوعب ما يدور وما يحدث، حكى لها عن الغضب داخل الجيش بعد الحرب، وذكر لها مأساة أهل فلسطين مع اليهود ودور الإنجليز والملك ودور يهود مصر، عندها سألته عن دور أبناء شيكوريل فقال:

ـ أبناء شيكوريل كلهم خوف والرعب واضح عليهم وده طبيعي بسبب أعمالهم وتجارتهم، بس للحقيقة مالهومش دور واضح في كل اللي بيحصل في أرض فلسطين على الأقل إلى الآن.

لم تنتظر كثيرًا وسألته من جديد:

ـ تفتكر إيه اللي ممكن يحصل يا محمود؟

قال في ثقة:

ـ إحنا في الجيش مش هنسكت وهنتدخل في أقرب فرصة.

في جزيرة الزمالك كان شبح سلامون يعتلي الأشجار يراقب

القاهرة وهو ملتصق بالقصر الكبير، قد اعتاد ككل الأشباح طبيعة وجوده وظن إنه أفضل حظًا من سالم الجنايني الذي مات وأصبح عدمًا أما هو فمازال هناك شيئًا ما يربطه بالدنيا.. يحاول أن يتذكر والده مورينيو شيكوريل فتغيب عنه ذكرياته ويقاسي كي يشعر بأولاده فلا يستطيع فانشغل عنهم وتعلق أكثر بالحيوانات والحشرات وصادق كلاب الحراسة وأصبح يتجسد للبشر دون قصد وبلا أي مبالاة ، لم يفكر في يوم من الأيام في إيذاء أحد فانشغل الجميع عنه وانشغل هو الآخر عنهم.

(19)

رابـين

تشـعر منيرة وهي تداعـب أطفالها أنها تعيش فـي قلب الحياة.. تنظر إليهم في متعة كأنها لم تر من قبل.. تسير خلفهم في شوارع القاهـرة بقلب سـاخن كالشـمس.. تراقبهـم بعناية حتـى الميدان الكبيـر.. تجلـس بينهم تحدثهم عـن أجدادهم.. عم سـالم والدها الـذي رحل منذ خمس سـنوات بعدمـا راوغ الموت بجسـده الهزيل وبأمراضه العديـدة، وتحدثهم عن أمها التي ماتت منذ زمن بعيد، تحكـي لهم عن جدتهم لأبيهم التي رحلت أيضًا بعد زواجها بعامين ومـع ذكـر الموتى كان الموت نشـيطًا من حولهـا وحول أطفالها وجـاء رجـل بملامح شـيطانية قامته قصيرة وسـمين كالأشـجار البائسـة والمنسية وشعره مختلط وممزوج بالدماء وبعينية رغبة في الانتقام واقترب من الأولاد، عندها لم تسـتطع الحركة وتسمرت بـالأرض واكتفـت بالصراخ حتـى ضعفت ووهنـت وراقبت الرجل وهو يقتل أولادها وهو مبتسـم ابتسـامة قبيحـة، ظلت تحاول منعه وتصـرخ بلا صـوت حتى اقتـرب منها وداعب نهديهـا بكف ملوث بدماء أطفالها وهي ذائبة كالشـمع الملتهـب، أزاح عنها قميصها الـوردي وإلتصـق بها ثم نزع عنها كل ملابسـها فـي قلب الميدان والمـارة ينظرون بلا أي اندهاش، تعرى هو الآخر فبدا جسـده لها كجسـد حيون غريب تجهله لكنه ليس بجسـد إنسان، ثم غرس

بداخلها عضوه الأعمى فصرخت كأنها انقسمت إلى نصفين، ظلت تصرخ حتى خلصها سعيد من كابوسها، وهو يحاول تهدئتها استيقظت بصعوبة في حالة ضياع، سألها سعيد عن رؤيتها فقالت وهي تبكي ودموعها تسقط كالسيل :

ـ الرجل القبيح قتل أولادنا.

لم يستوعب شيئًا، عن أي أولاد تقصد فهم بعدما يقرب من عشر سنوات زواج لم ينجبا أطفالاً، قصت له بالتفاصيل ما رأت وسألها عن الرجل القاتل فوصفته له فصرخ:

ـ عوض.

قالت بعد أن هدأت بعض الشيء:

ـ مين عوض ده يا سعيد؟

رد وهو شارد شاحب اللون:

ـ عوض واحد من الأربعة اللي قتلتهم يا منيرة.

أفكار كلهيب الصحراء ملأت رأس سعيد، ومنيرة لم تكف عن البكاء وساد الصمت لدقائق ثم هب سعيد نحو مكتبه يبحث عن كُتب كريستي وهو يقول:

ـ كان لازم أكمل الطريق لآخره يا منيرة.

قامت منيرة من فوق السرير ومشت نحو سعيد ووقفت أمامه وأمام مكتبه وقالت:

ـ هتسيبني لمين يا سعيد وتغيب سنين وأنا ماليش غيرك؟

ـ مش هسيبك يا منيرة.

ثم قال وهو قابض على كتب كريستي بعد أن أخرج بعصبية من بينها ورقة لوح بها في وجه منيرة:

ـ مش هغيب عنك يوم واحد.

رأت صورة قاتل أطفالها الذين لم تتجبهم في ورقة منزوعة باهتمام من عدد قديم لجريدة المصور، ثم صرخت:

ـ هو ده يا سعيد.

ضمها سعيد بحنان فغاص جسده في لحمها الطري وعاود همساته:

ـ نفسي أخلف منك أولاد تشبهك والحلم ده مالوش إلا تفسير واحد يا منيرة.

ـ إيه تفسيره يا حبيبي؟

ـ الماضي هو اللي حرمنا من نعمة الأطفال.

ـ وبعدين؟ أنا مقدرش أعيش لواحدي، قبل كده كان أبويا عايش، ومحمود اتجوز ومش بشوفه إلا كل كام شهر.

طبع قبلة على جبينها وهو مبتسم:

ـ قولتلك يا حبيبتي مش هسيبك.

ـ وليه قتلته يا سعيد؟

ـ مش فاكرة عوض ده يا منيرة؟

ووضع صورته أمام عينها فنظرت إليها من جديد فتذكرت كابوسها فنظرت بعيد.

ـ لا عمري ما شوفته إلا في الكابوس.. قتلته ليه؟

ـ في يوم من الأيام وقبل سنين كنت ماشي وراكي وشوفت عوض ده بيتعرض ليكي.. مش فاكرة يا منيرة؟

تذكرت رجلاً تحرش بها وإلتصق بجسدها في زحمة الناس

وسمح لكفه الخشن بأن يستكشف نعومة جسدها فما كان منها إلا أن صرخت في وجهه ولم تره من بعدها.

أمسكت الورقة ونظرت في صورة عوض من جديد وفسرت باقي حلمها ثم قالت لسعيد:

ـ عشان كده قتلته؟

ـ أه.

كان عزر سعيد أقبح من ذنب، شعرت منيرة أن الدنيا بعدما صفت ولانت عادت من جديد لقسوتها وشدتها، جلست على طرف السرير تنظر إلى سعيد وهو ممسك بالورقة يحاول أن يحصل على أي شيء يدله عن المكان الذي كان يعيش فيه عوض بالتحديد.

كانت تفكر في سعيد الذي قتل مرة من أجلها وسعى للمرة الثانية لولا تدخل القدر.. تفكر في عشقه الذي يكبر ويتجدد مع كل صباح، حتى بعد عشر سنوات زواج لم تبهت نظرته لها ولم تخفت دقات قلبه.. يراقب كل تفاصيل جسدها حتى أدمن جسدها نظراته وأصبح رافضًا لفكرة غيابه، فثار وفار فأخذت تهدئه وتطمئنه بكفيها وسعيد يعبث مع الزمن مرة ويستجديه مرة أخري حتى يصل إلى أهل أو حتى أصدقاء عوض، منيرة التي كانت تتباهى بقدرتها على تحويل سعيد وتغييره أصبحت الأن تشعر بالذنب هي الآخرى، فتحركت نحو سعيد الغارق في الماضي جالسًا على كرسي المكتب، وألصقت رأسه بجسدها الغاضب وهي تقول:

ـ ارتاح دلوقتي يا حبيبي والصبح نشوف حل وناخد قرار وأنا مش هسيبك لوحدك.

ـ راح النوم من عيني يا منيرة.

تحـرك نحو شـباك الغرفـة وملامحه يكسـوها الهـم والحزن فتحركت خلفه واحتضنت ظهره وقالت:

ـ مالك يا سعيد؟

استدار وضمها بشوق:

ـ ظلمتك كتير.

سـقطت دمعه منه على كتفها فاستشـاط قلبها غضبًا وضمته هي الآخرى بقوة:

ـ مين اللي ظلم مين يا حبيبي؟

ـ أنا اللي ظلمتك طبعًا.

ـ أبدًا.. أنا اللي طلبت منك المستحيل.

ـ لأني قاتل.

ـ كنت قاتل ودلوقتي أنت عاشق.

ـ إزاي القاتل يبقى عاشق؟

ـ لما يقتل عشان عشقه.

صمـت ولـم يرد بعد أن تأكـد أن منيرة مسـتعدة أن تهزم كل أفكاره وهمومه، لم تنتظر منيرة كثيرًا ليتحدث وقالت:

ـ أنا افتكرت اليوم اللي قابلني فيه عوض ده.

ـ بجد؟

ـ أه افتكرت يومها حاول يعمل معايا كده...

وضعت كفيه على نهديها فترك لها نفسه.

وأردفت:

ـ ولكن جسمي كان بيرفض أي راجل غيرك.

وأزاحت عن جسدها قميص نومها البسيط في حركة خاطفة وهي تقول:

ـ حاول كمان يسرقني في حضنه.

ومالت بجسدها نحوه فسكنت جوارحه وحملها برفق نحو السرير وهو يقول:

ـ كان لازم أقتله.

ابتسمت...

في الصباح بدء سعيد رحلة المعاناة فعوض هو قتيل سعيد الغامض وتقرير الجريدة لم يبرز عنه الكثير وتحرك سعيد في المنطقة التي قتله بها بالقرب من ميدان العتبة.. يجلس على المقاهي يتحدث للمسنين ومعه صورة عوض.. يتسكع في الشوارع ويحتك بالمارة ويصطنع معهم أحاديث كاذبة لعله يجد مع أحدهم ما يريد.. لا يكف عن البحث حتى في نومه حيث رأى هو الآخر عوض، كان مبتور الأطراف يشبه جزع شجرة سمينة وجافة وحاول الحديث معه، لكن عوض لم يستجب واستمر سعيد يبحث عن أهله عدة أسابيع دون أن يكل أو يمل.. يخرج مع كل صباح قبل منيرة ويعود مع الليل كالقتيل، حتى تدخلت منيرة حيث كانت تمتلك علاقات عديدة برجال البوليس من خلال عملها وحملت معها تقرير الجريدة وسألت رجال يعملون في البوليس حتى حصلت على عنوان عوض وكل المعلومات التي يحتاجها سعيد..

كان عوض من حي السيدة زينب.. متزوج.. ترك طفلتين.. هذه كل أسرته وكان يعمل فران، على الفور توجه سعيد لحي السيدة وعانى من جديد حتى وصل لأسرة عوض التي كانت تعيش بالكاد في غرفة أعلى بناية حزينة تسقط أجزاء منها كالدموع ودخل

عليهم سعيد بحجة وجود صداقة وزمالة قديمة تجمعه بزوج الأرملة التي أهملت نفسها بعد موت زوجها أو ربما كانت هكذا قبل أن يموت ويتركها ، هذا هو انطباع سعيد الذي فسر به سبب تحرش زوجها بالنساء في الشوارع وحمد الله على نعمة منيرة وتخيل لو أن هذه السيدة القبيحة كانت زوجته ، فلعن الفكرة ولعن الخيال وعاد إلى الأرملة من جديد يحاول أن يميز لونها.. هل هي سوداء أم أن هذا السواد ما هو إلا تراكم عادم الأيام والسنين على بشرتها.. كانت امرأة طويلة قوية الجسد ، رحبت به وسلمت عليه بيد ثقيلة وغليظة وهي تسأله:

ـ دا إيه اللي فكرك بعوض وأهل عوض يا افندي؟

ـ عوض زارني في منامي ووصاني بأولاده.

لم تقتنع السيدة فصمتت وأردف هو:

ـ ظلمت عوض في حياته وحاسس بالذنب بقالي 10 سنين ودي مش أول مرة يزورني في منامي ومصدقت يطلب مني حاجة.. يمكن لو نفذت طلبه أرتاح.

لم تهتز الأرملة ولم يقشعر جسدها وهو لم ينتظر ذلك فهو يعلم أن إحساسها ببعض الأشياء كالعدم ، سألته مرة أخري:

ـ ظلمته إزاي يا اخويا؟

ـ قتلته.

قالها باقتضاب ولم ينبس ، إلى أن صرخت في وجهه واقتربت منه فأدرك مدى قبحها ، لمعت بشرتها السوداء.. حاول تحجيم ثورتها عندما قال:

ـ بصي يا ست جوزك تطاول على أهل بيتي ومد إيده عليهم وأنا

كنت لسه شاب طايش.

ـ تقوم تقتله يا مفتري!!

ـ أنا غلطت كتير وموت جوزك على إيدي عذبني وحرمني من حاجات كتير وعملت المستحيل عشان أوصلكم.

ـ وليه توصلنا عايز إيه مننا دا سايب بنتين بيتهد حيلهم في بيوت الناس وبرضه مش عارفين نعيش.

ثم ثارت في وجهه من جديد :

ـ سيبنا في حالنا مش عايزين منك حاجة.

لم يمل ولم ييأس وترجاها :

ـ من فضلك يمكن أقدر أعوض غياب أبوهم؟

ـ هتعملهم إيه يعني؟.. هتسكنهم في بيت زي بنات الناس؟ هتسترهم وتجوزهم وترحمهم من الخدمة في البيوت؟

قبل أن يرد طرقت الباب فتاة رآها سعيد قبل دخولها عبر فراغات بين حلق الباب والجدار، وفراغات أخرى بالباب نفسه عندما دخلت الغرفة اكتملت الرؤية.. فتاة تقترب من العقد الثاني.. جميلة لدرجة أنها زادت من قبح أمها.. جلست بجانب أمها وهي تنظر في عينيها تسألها عن الضيف دون أن تنطق فقالت أمها :

ـ صاحب أبوكي يا ليلى.. فيه الخير جاي يطمن عليكم.

لم تهتم الفتاة وخرجت إلى البراح أمام الغرفة فقال سعيد للسيدة :

شكرًا ليكي وأنا هقدر أوفرلكم سكن وجواز ومصاريف البنات عليا.

بكت أم البنات:

ـ هقولهـم إيه؟ هقولهم ده اللي قتل أبوكم؟ دول ولايا وغلابة.. يمكن لو كان فيهم ولد كان يقدر يتحاسب معاك.

ـ مش محتاج حساب أنا عارف اذيتكم قد إيه وأنا عند وعدي ليكي.

ثـم انصرف ووعـد الأرملة بزيـارة قريبة وطلب منها الاسـتعداد لترك السطوح، عندما عاد لمنيرة التي كانت في انتظاره.. حكى لهـا عـن الأرملة وبناتها فبكت.. نظرت لسـعيد وهو يغير ملابسـه فوجدته هادئًا وثابتًا فسألته:

هنعمل إيه يا حبيبي؟

ـ بفكر أشوف شقة بالإيجار.

قاطعته:

ـ بيت أبويا يا سعيد فاضي من يوم جواز محمود.

قال بعد تفكير دام لثوان:

ـ بـلاش يا منيرة دي غلطتي أنا وده بيت محمود قبل ما يكون بيتك.

ـ يـا حبيبـي إنـت قتلته بسـببي وبعديـن محمود مـش محتاج.. موضوع السـكن سهل وهيسـهل علينا حاجات كتير عشان نعرف نستر البنات وناخد بالنا منهم.

وضع كفه على قلب منيرة:

ـ قلبك يساع الدنيا.

ابتسمت:

ـ قلبي ملكك إنت بس.

لم يمر أسـبوع حتى دخلت الأرملة مع بناتها بيت سـالم الجناينى

وتكفل سعيد بهم، فقد كان يكسب المال الوفير بعد أن احترف تجارة الخضروات والفاكهة وتحملت منيرة معه وزر ماضيه وصعوبة حاضره فقد حكى لها كثيرًا عن أهل علي أول قتلاه حتى زارتهم أكثر من مرة وسمحت لعزيزة أخت عبدالله ثاني قتلاه أن تقتسم معها زوجها وحبيبها سعيد وفتحت لأسرة عوض بيت أبيها وسألت سعيد عن أخر قتلاه.. الرابع، فأجاب دون أن يستعين بكتب كريستي:

ـ كان شاب يهودي من الضاهر.

ـ يهودي!؟

ـ أه.. كان اسمه رابين.. كان بيتردد على الخمارة وكنت بشوفه بتعقد ويركبني 100 عفريت، في ليلة كنت سكران ودخل علينا الخمارة وكان بيتخانق ويسب لكل الموجودين.

صمت فتكلمت منيرة:

ـ وبعدين.

ـ وبعدين قومت اتخانقت معاه وطردته.. وهو ماشي سب ديني ودين أهلي وسب لمصر وكل أهلها فقتلته في نفس المكان اللي قتلت فيه عبد الله.. قدام الخمارة.

قالت منيرة:

وده هتعمل معاه إيه يا سعيد:

ـ أسرع نحو كُتب كريستي وأخرج الورقة الرابعة والأخيرة وقال:

ـ هنعمل المستحيل.

(20)

يا ابني تذكّرْ!

هنا صلب الإنجليزُ أباك على شوك صبار

سوف تكبر يا ابني،

وتروي لمن يرثون بنادقهم سيرة الدم فوق الحديدِ

محمود درويش

شهدت الأراضي الفلسطينية صراعات وسالت الدماء بين العرب والمليشيات الصهيونية الأمر الذي دفع منظمة الأمم المتحدة للتدخل من أجل إيجاد حل وليتها ما تدخلت..

ففي 29 نوفمبر من عام 1947م أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم فلسطين "قرار رقم 181".

كانت الجمعية العامة تتشكل من 56 دولة هم كل أعضاء المنظمة الأممية حتى هذا التاريخ، خرج القرار بأغلبية 33 صوت ورفضت 13 دولة وامتنعت 10 دول عن التصويت وانتهى مع هذا القرار الانتداب البريطاني على فلسطين التي قُسمت إلى:

- دولة لأهل فلسطين.. في الجليل الغربي وعكا والضفة الغربية والساحل الجنوبي "غزة" وشكلت هذه الدولة 11 كم مربع من الأراضي الفلسطينية 43%.
- ودولة لليهود.. في الجليل الشرقي وعلى الساحل من حيفا

وحتى تل أبيب وبلغت مساحة هذه الدولة المزعومة 15 كم مربع 56%.

ـ أما القدس وبيت لحم فأصبحتا تحت الوصاية الدولية..

واحتفلت المنظمات الصهيونية في قاعة الجمعية العامة وأصبح 29 نوفمبر يشكل أهمية كبيرة للصهاينة ولم لا وقد أتى هذا القرار كتتويج لأعمالهم الشيطانية، جاء تحت ضغط من دول بعينها في مقدمتها أمريكا وبريطانيا ورفضت الدول العربية قرار التقسيم وخرجت بعده قرارات من خلال الجامعة العربية مع مذكرة عنيفة موجهة للإنجليز والأمريكان.

تمت إقامة معسكرات لتدريب المتطوعين من أهل فلسطين بالقرب من العاصمة السورية دمشق، وتم الإعداد لتكوين جيش عربي "جيش الانقاذ" ورصدت الجامعة العربية مليون جنية مصري من أجل الدفاع عن الأراضي العربية في فلسطين، تشكل جيش الانقاذ في البداية من 7700 جندي في الوقت الذي كانت الأسلحة والإمدادات تصل إلى اليهود عن طريق أمريكا وإنجلترا، حضر الضباط الغربيون والروس لتدريب الصهاينة على تلك الأسلحة وأعدوا جيش من 75 ألف جندي، وفي منتصف عام 1948م وبالتحديد في 15 مايو صبيحة إعلان قيام دولة إسرائيل اشتعلت الحرب بين العرب والصهاينة واستمرت لأكثر من 9 أشهر، كانت أرض المعركة في فلسطين وجزء من شبه جزيرة سينا وجنوب لبنان، تشكل الجيش العربي من مصر بواقع 20 ألف جندي.. والعراق 18 ألف جندي.. وسوريا 5 آلاف.. والأردن 12ألف.. ولبنان 1000 جندي ومن السعودية 1200 بجانب 300 من اليمن بخلاف جيش الانقاذ الذي وصل إلى 6000 جندي وكان الجيش

المصري هو أكبر الجيوش العربية وأكثرهم فاعلية على الأرض وصنع معركة أرهقت الصهاينة في صحراء النقب "الفلوجة" رغم ضعف الإمكانيات وفساد الأسلحة والإعداد المتوتر وكان محمود سالم ضمن أفراد الجيش المصري.

في القاهرة اشتعلت نيران الغضب ضد الإنجليز واليهود وصب المصريون لعناتهم على كل ما هو يهودي وكل ما هو إنجليزي وتابعوا الحرب الدائرة بعصبية، لكن يوسف شيكوريل كان أكثر عصبية وأهمل أعماله وجلس ينتظر النتائج.. فاقدًا الشهية دائمًا.. يدخن.. يحتسي القهوة سادة دُبل.. يسير في نادي الجزيرة شاردًا متوترًا يجلس مع سلفاتور يتحدثون ويتوقعون نتائج الأحداث السريعة التي كانت كلها غير مطمئنة، وكان سلفاتور أكثر ثباتًا من يوسف، جلس في صباح يوم من تلك الأيام بالقرب من شاطئ النيل يذكره:

ـ لن ينسى المصريون رفضي للدعاية اليهودية من خلال جمعية الشباب اليهود التي تحاول سرقة إنجازات أبطال مصر اليهود لتنسبها إلى إسرائيل.. لقد وقفنا ضد مخططات وأفكار تلك المنظمات.. لن ينسوا عظمة القتال بالسيف باسم مصر في دورة الألعاب الأولمبية في أمستردام عام 28.. لقد حصلت لمصر على المركز السادس وكنت قريب من حصد ميدالية.. لقد أعلنتها يا أخي للجميع أنني أشارك في جميع المنافسات كلاعب مصري يهودي الديانة ليس أكثر.

كانت أشعة الشمس تقسم وجه يوسف شيكوريل إلى نصفين وهو جالس كعادته تحت الشمسية الملونة في نادي الجزيرة ومع ذلك لم يشعر بها.. كانت همومة أثقل ومخاوفه أعظم من الجزيرة

نفسها.. تحشرج صدره وهو يحاول أن ينطق:

ـ هل يعلم المصريون عن كل هذا؟

قال سلفاتور:

ـ يكفي أن يعلمه القصر ويعلم كل من يهتم بالعمل العام من هم أبناء مورينيو شيكوريل، والأهم من كل ذلك علاقاتي بضباط الجيش المصري.

متشائم لحد العمى.. هكذا كان يوسف شيكوريل:

ـ كل هذا ليس كافيًا يا أخي.

سأله سلفاتور:

ـ وماذا عن أوريكو؟

ـ ما يحدث على أرض فلسطين أقوى من كل ما قدمته لمصر بسيفك في المبارزة وأقوى من مواقفنا الرافضة للجمعيات الصهيونية وأقوي من أوريكو.

تعجب سلفاتور:

ـ تخيل يا أخي، هناك بعض المتشددين اليهود رافضين لقرار التقسيم وطامعين في كل أرض فلسطين!!

ضحك يوسف بعصبية:

ـ هذه إشكالية تاريخية يا سلفاتور.

ـ وهناك بعض الشيوعيين العرب رحبوا بالتقسيم.

ـ الشيوعيون أعداء القوميات ولا وطن لهم وموقفهم طبيعي.

ـ وبعدين يا يوسف؟

نظر يوسف إلى النيل العظيم وهو يقول:

ـ لا نملك سوى الانتظار.

ـ كل هذه الهواجس يا أخي بدأت ليلة مقتل سلامون.

أومأ يوسف برأسه:

ـ اشتقت لسلامون وإلى والدنا.. ما رأيك أن نذهب لقبر العائلة في البساتين.

تحمس سلفاتور للفكرة:

ـ لم نزرهم منذ زمن بعيد يا أخي.. شغلتنا الدنيا عنهم.

.. كانت نوبات الحب والوفاء والولاء تجتاح يوسف وسلفاتور لكل ما هو مصري، لكن نوبات الخوف والقلق من المصير كانت تقتلهم.

***

في حي الظاهر كان سعيد يعدو في الشوارع متلهفًا للخلاص من حمل أثقل ظهره وسرق منه العمر في الترحال من مكان إلى مكان.. يبحث عن أثر رابين في الحي.. هنا عاش سنينا من عمره فماذا ترك؟.. ترك أمًا أو أبًا أم ترك زوجة وأولادًا أو حتى صديقًا.

وفي منطقة الظاهر ما أكثر اليهود، ففي هذا الحي الذي سمي بهذا الاسم نسبة إلى سلطان مصر في العهد المملوكي "الظاهر بيبرس" رابع سلاطين مصر في عهد المماليك وأبرزهم.. فيه معظم المعابد اليهودية والمدرسة الإسرائيلية، كان من الطبيعي أن يبحث سعيد بين هؤلاء اليهود عن أثر قتيله، بالفعل احتك بهم وتعاملوا معه بالكثير من الريبة والقلق وعانى معهم، مر بميدان الظاهر أو ميدان مذبح الإنجليز كما أطلق عليه بعد أن حول الإنجليز جامع الظاهر بيبرس إلى مذبح للعجول والخرفان ورغم ذلك داوم سكان الحي

على آداء الفروض بجوار المسجد..، استمر سعيد يتردد على الحي شهورًا حتى وصل لأحد أصدقاء رابين، كان شابًا في سن الخامسة والثلاثين اسمه إسحاق.. أعزب.. مهندم الثياب.. يأكل بنهم.. يدخن أحيانًا.. يعمل بالسمسرة وأحيانًا يعتمد على مراهنات القمار، تعرف عليه سعيد في ليلة من ليالي خريف عام 1947م وكان إسحاق هو آخر ما تبقى من أثار رابين فلا أهل ولا أصدقاء غيره، كان على سعيد أن يطلب العفو والتصالح والسماح منه بعد أن صادقه، تحمل معه خسائره في القمار أحيانًا وأحيانًا آخرى كان يشتري له الطعام والملابس بعد أن استغله إسحاق أفضل استغلال حتى قبل أن يصارحه سعيد بحقيقته، دامت الصداقة لأكثر من أشهر سبعة، عوض سعيد إسحاق عن غياب صديقه، وقدم له مالم يقدمه رابين أو غيره من الأصدقاء حتى اعترف إسحاق بذلك في ليلة سوداء من ليالي مايو 1948:

ـ أنت أوفى صديق يا سعيد.

قال سعيد بثبات:

ـ أوفى من رابين؟

صمت إسحاق لثواني:

ـ رابين مين؟

ـ صديقك اللي اتقتل من سنين في قلب القاهرة.

اندهش إسحاق وقال:

ـ وأنت كنت تعرف رابين منين؟

بشجاعة رد سعيد:

ـ أنا اللي قتلته..

وحكى سعيد أمام إسحاق قصته مع رابين وقصته مع منيرة وقصته مع علي وعبدالله وعوض وطلب منه السماح ليتخلص من وزر ماضيه، وكان إسحاق يستمع له بلا أي تأثُر.. كان يسير بجانب سعيد في الخلاء كما اعتادا قضاء الساعات الأولى من أيامهما معًا، وبينما كان سعيد يبحث عن حجر يجلس عليه ليريح جسده بعدما أراح ضميره وقتل ماضيه، إذا بإسحاق يغرس مطوته في ظهره.. اخترقت ضلوعه.. لم يصدق سعيد فتحسس جسده فسقطت الدماء على كفه قبل أن تروي الأرض، رأى أسنان إسحاق بارزة في الظلام عندما استدار وقبل أن يستوعب بادره بطعنة آخرى أسفل قفصه الصدري وسحب مطوته ونظفها بمنديل أخرجه من جيبة وألقاه بجانب سعيد الذي سقط على ركبتيه وجلس بجانبه مبتسمًا:

ـ كلمني عن طعم الموت يا سعيد؟

قال سعيد وهو يتشبث بالحياة:

ـ ليه يا إسحاق؟

ـ مفيش بينا تصالح ولا تسامح يا غبي.

ابتسم سعيد ابتسامة صافية:

ـ أنا فعلاً غبي.

إنهار سعيد فاقترب منه إسحاق في حذر وأخرج من جيبه ما بها من نقود وسجائر وأخرج أيضًا صورة لمنيرة لم يهتم بها فسقطت على الأرض والتصقت بدماء سعيد، جلس إسحاق من جديد وقال وهو يشعل سيجارة:

ـ كلمني عن طعم الموت يا صديقي؟

قال سعيد وهو ممسكًا بصورة منيرة:

ـ لسه محستوش بس شوفته في عيون رابين من سنين.

ضحك إسحاق بعصبية حتى سقطت السيجارة من يده فقال وهو يشعل آخرى:

ـ رابين مامتش.. رابين بيحارب العرب في فلسطين وبفلوسك دي "ولوح بمحفظة نقود سعيد" هقدر أسافرله في أقرب وقت.

مات سعيد وهو يشعر بالخوف..

عاش شجاعًا ومات خائفًا..

***

في صحراء النقب كان رابين ممسكًا بسلاح أمريكي مرتديًا زيًا أزرقًا قادم من لندن.. يقتل بلا رحمة، عندما يكل ويتمكن منه التعب يتحسس أثار جرحه القديم القادم به من القاهرة فيثور من جديد.. كان ضمن العصابات الصهيونية التي حاصرت الجيش المصري في الفلوجة، بينما كانت الجيوش في حالة استرخاء بعد اتفاق على وقف اطلاق النار.. اعتلى رابين قمة صخرة عالية.. يراقب من فوقها أفراد الجيش المصري ليصطاد أحدهم حتى لاح له هدف فقبض على سلاحه بإحكام وأطلق رصاصة غدر عمياء ولكنها لم تخطئ هدفها.

على الجانب الآخر كان الجيش المصري يعاني من نقص في الذخيرة ونقص في الإسعافات، مع ذلك حاول طبيب ملتحق بالجيش إسعاف المصاب لكن كانت رصاصة رابين حاسمة وقاتلة فقال الطبيب متأسيًا:

ـ أخبروا القائد.. البكباشي محمود سالم إلتحق بالشهداء.

***

عاشت منيرة في حالة ضياع بعد غياب سعيد ، قد اعتاد الذهاب إلـى الظاهر بشـكل متواصل إلـى أن ذهب ذات يوم ولـم يعد مرة أخـرى وعظمت هواجسـها وهـي تتابع أخبار الحرب في فلسـطين قلقًا على محمود.. ذبلت في أسابيع قليلة وأهملت مظهرها وهجرها النوم وفقدت الشهية وملت العمل في محلات شيكوريل، مع ذلك كانـت تدفن ظنونها وهواجسـها في العمل.. كانـت تبكي أمام الجميع وتجف عيونها في بيتها.. تنزوي في أركان البيت كقطعة أثـاث بالسـاعات وتقف في الشـرفة المطلة على الشـارع سـاعات أخرى منتظرة عودة أحدهم.. تذهب إلى الميدان الكبير تتحسـس أثـر حبيبها وفي صباح يـوم صيفي من أيام عام 48 ذهبت إلى محل شـيكوريل بـلا نـوم أو طعـام.. كانت شـوارع القاهـرة مرتبكة ومهملة ولكنها كانت أكثر اهمالاً وارتباكًا ، عندما اقتربت من ميدان العتبة كان الدخان يغطي السماء والجميع يتحرك بغوغائية تسمرت بالأرض عندما رأت النيران تلتهم محل شيكوريل..

(21)

منـــيرة

أصبـح بقاء عائلة شـيكوريل بعـد نكبة الجيـوش العربية في فلسطين شبه مستحيل.

وبعد ثورة يوليو درب من الخيال، لم تنفعهم أوريكو ولم يستفد سـلفاتور كثيـرًا بعلاقته ببعـض الضباط الأحرار، وقد اشـتعلت النيـران بمحـلات العائلـة مرتيـن.. الأولى أثنـاء حـرب 48 والثانية مـع حريـق القاهرة، وقد تكفلـت حكومة ما قبل الثـورة بترميم المحـلات وإعادتها لصورتهـا الأولى، وبعد العدوان الثلاثي في 56 تم تأميم معظم ممتلكات العائلة وقام الشـقيقان يوسف وسلفاتور بتصفية كل أعمالهما والهجرة إلى أوروبا ولم يُعرف بالتحديد أين استقرت العائلة لكن المؤكد أنها لم تذهب إلى إسرائيل.

وعـن قصـر العائلة فـي الزمالك فقد قامت أسـرة الفنان عزت أبو عوف بشـرائه عام 1957م، وتحدث الفنان المعروف أكثر من مرة عن شـبح سـلامون شـيكوريل، ولكنه نسـبه إلى سلفاتور، يحكي الفنان ويقول: أنهم اشـتروا القصـر بالبيانو الخاص بعائلة شـيكوريل، بينمـا كان هو وأختـه الفنانة مها أبو عـوف يعزفان على البيانو إذا بشـبح سـلامون يدخل عليهم مما سـبب لهم الرعب والفـزع فـي البداية لكن مـع الأيام اكتشـفوا أنه لا يـؤذي أحدًا فاعتبروه جزءًا من القصر وتعايشوا معه وقصت أيضًا الفنانة يسرا

عـن الليلـة التي قضتها بالقصـر وتقول أنها لم تسـتطع البقاء حتى الصبـاح وخرجت مـن القصر مـع الفجر وقامت إحدى السـفارات الأوربيـة المجـاورة للقصـر بشـرائه من أسـرة الفنان وأُلحـق بها.. وكان للعائلة قصر آخر في منطقة مصطفى كامل بالإسكندرية وهذه الفيلا تمثل لأهل الإسكندرية قيمة تاريخية وجمالية ولذلك وقفـوا ضـد المحـاولات العديدة لهدمهـا بغرض اسـتغلال موقعها المتميـز وأُنشـيء القصـر عـام 1930م وصممـه أربعـة مهندسـون فرنسـيون، وقد تم تأميمه أيضًا بعد العدوان الثلاثي وأصبح تابعًا لرئاسـة الجمهورية، يقال أن الرئيس السابق حسني مبارك فر إلى الإسكندرية واحتمى بالفيلا أثناء انتفاضة الخبز في يناير من عام 1977م عندما كان نائبًا للرئيس أنور السـادات الذي فر هو الآخر إلى جنوب مصر.

أما عن مقبرة الأسرة في البساتين فقد زحفت إليها العشوائيات وقـام بعـض الوافدين إلـى القاهرة بالبناء والسـكن فيهـا بل وتم إنشاء عزبة بالكامل على أطلال تلك المقابر تسمى عزبة النصر.

واسـتمرت محلات شـيكوريل تعمل تحـت إدارة الدولة إلى أن وصلها قطار الخصخصة وحتى عام 2000م كان محل شيكوريل يقـف شـامخًا بجانـب قصـر الأوبـرا فـي العتبـة، وتم هدمـه بعد خصخصته وانتهى وتلاشـى كل أثر لعائلة مورينيو شيكوريل في مصر بعد أن تغيرت مصر.

حتى نادي الجزيرة.. نادي الأثرياء قد تم تأميم نصفه تقريبًا وتم إنشاء مركز شباب لأبناء الطبقة الوسطى في قلب الجزيرة.

نعـم تغيرت القاهـرة وقامت الأبراج والفنادق علـى جانبي النيل وظلـت منيـرة محتفظة ببيتها كما هو رغم مرور السـنين، مازلت

تنتظر سعيد ، عانقت البنايات من حولها السماء وتقدمت الدنيا وظلت هي على وضعها تنتظر مساعدة من جار أو من قريب أو حتى من غريب، ذهب جمالها وأُصيبت بأمراض الشيخوخة وباغتتها سكرات الموات عام 1978م، وهي جالسة على مقعد حزين أمام تلفزيون أبيض وأسود 14 بوصة أحمر اللون كان ينقل بث مباشر من منتجع كامب ديفيد.. دخلت عالم الموت ورأت في سكراتها الميدان الكبير قبل ثلاثين عامًا وهي تجلس بجانب سعيد.. كان جميلاً.. مبتسمًا.. وسيمًا.. حدثها عن قلبه.. عن عشقه.. عن رحلته إلى المستحيل..

استفاقت على الضحكات المصطنعة الخارجة من التلفزيون التي يتبادلها الجالسون بالمنتجع ودخلت إلى سكرات الموت من جديد ورأت الميدان الكبير بعد أكثر من ثلاثين عامًا.. كان مزدحمًا بالشباب والأعلام والرايات والباعة الجائلين وتداخلت أصوات الهتافات ولم تنشغل بكل ذلك بل صارعت الأجساد القوية حتى تصل إلى حبيبها.. إلى سعيد ظنًا منها أنه ينتظرها في نفس المكان الذي ودعها منه آخر مرة، عندما وصلت وجدت حلقة من البشر ملتفين حول ثلاثة شباب كان أولهم من الطالبية وجلس على ركبتيه يحكي عن سعيد وحكايته البطولية التي تواترها أجيال وأجيال من أبناء الطالبية.

أما الثاني فكان من الأزبكية وأخذ يحكي بشجن عن سعيد وحكايته الخالدة في الأزبكية التي قصها الآباء للأبناء في زهو وإعجاب.

وكان الثالث من السيدة زينب وقص على الجميع قصة سعيد مع الأرملة وبناتها وكيف غير حياتهم البائسة.

اخترقت منيرة الصفوف بصعوبة حتى دخلت الدائرة وجلست بجانب الشباب الثلاثة تحكي عن قصة سعيد في الظاهر مع الشاب اليهودي وأخذت تصرخ فيهم حبيبي.. سعيد ذهب ولم يعد.

عادت منيرة من سكراتها مرة آخرى على صوت صرير أقلام المجتمعين بالمنتجع.. كانت الأقلام تنزف دمًا وكانت منيرة تودع الدنيا كأنها نقطة مطر شتوية علقت بالسماء لسنوات وسقطت على رصيف صيفي ملتهب فتبخرت قبل أن تشعر بالألم..

~

المؤلف

أحمد سلامة

مواليد البحيرة 1988م.

حاصل على ليسانس حقوق جامعة طنطا.

تحت النشر:

رواية أبو الدهب

للتواصل مع المؤلف

abosalama551@gmail.com

a_salama1988@yahoo.com